الفصل السابع

أثر العقيدة فى الحياة

obeikandl.com

obeikandl.com

حسن السلوك

تتركز نقطة الخلاف الرئيسية بين الأديان حول قضية التوحيد ، فهى تجسم هوية الدين وشكله ، وتظهر ملامحه ، وتحدد أبعاده ، فمن يقف على جزئيات هذه القضية فى أى دين ، يدرك على الفور مكانه بين الأديان ، إذ هو — بناءً على ما تحويه من تصورات — دين متعدد الآلهة ، أو مجسد لها . يفصل بين الإلهية وبين البشر بفواصل بعيدة المدى ، أو قريبة قرباً يجعل الإله واحداً من البشر ، أو يكون ديناً ذا إلهٍ واحد لا يشبهه أحد من خلقه ، فهو ليس كمثله شيء ، ومنزه عن المكان والزمان ، فهو بعيد عن خلقه فى التصور — مكاناً أو كيفية — ، قريب منهم فى مجال الاطلاع على ما يعملون ، وفى محيط العناية به والمحافظة عليهم ، وفى آفاق الثواب والعقاب .

وكانت هذه القضية هى أول ما يهتم الأنبياء به من مسائل التبليغ ، وهى محور نشاط الدعاة فى المجال الدينى ؛ إذ ينحصر نشاطهم — فى معظم الأحيان — فى إقناع الناس بتصوراتهم فى هذا المجال ، فهى الأساس الذى تقوم عليه جميع المبادئ التى ينادون بها ، وتتشكل على أساسها جميع الأوامر التى تتعلق بالعبادات والأخلاق والمعاملات .

فعناصر تصور الإله هى التى تشكل تعاليم الدين وتصورها . وطبيعته فى كل دين تنعكس على كل ما يحتويه من تعاليم . ونوع العلاقة بينه وبين الإنسان يشكل سلوك أتباعه ، ويحدد طبيعة مسارها .

ولهذا كان التوحيد فى الإسلام منبع سلوك المسلمين ، ومصدر كل عمل يقومون به ؛ إذ تغرس كلمة : " **لا إله إلا الله** " فى قلب من يقولها إيماناً بأنه لا سلطان لأحد عليه إلا الله ، فهو لا يخضع لظالم ، ولا ينحنى لكافر ، ولا يرضى عن فاسق ، ولا يساعد محتالاً ، ولا يقدم عوناً لمن حاد عن طريق الله ، فليس بينه وبين الظالمين صلة ، ولا يربطه بالمنافقين أدنى رباط ، فهو لا يعمل إلا لله ، ولا يغضب إلا لله ، ولا يرضى عن أحد إلا إذا كان سلوكه مطابقاً لما أمر الله به ، وبهذا يكون متحرراً من كل قيد إلا إذا كان فى إطار ما التزم به تجاه ربه ، فليس لأحد عليه سلطان ، ولا يجبره إنسان على مخالفة ما أمره الله ﷻ به ،

فهو من الذين قال الله فيهم : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الحجر : ٤٢] ، أى إلا من نسي أمر ربه ، واتبع الشيطان . ومن يستقر التوحيد فى قلبه لا تتطرق إليه الغفلة عن أوامر الله أبداً . وفضلاً عن هذا فالإيمان بالله يشيع الاطمئنان فى قلب المؤمن ، فتهدأ نفسه ، وفى هدوء النفس راحة البال ، واستقرار فى الحياة ، يقول تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد : ٢٨]

ولا شك أن الاطمئنان أمل كل إنسان فى هذه الحياة ، إذ بدونه تصير الحياة جحيماً لا يطاق ، فمن يفتقده لا يهنأ بمال ، ولا يسعد بولد ، ولا يستسيغ جاهاً ولا سلطاناً ، ففى الاطمئنان أمان على النفس والمال والولد ، وضمان للمستقبل فى الحياة الدنيا ، وشوق إلى الحياة الآخرة ، لأن جزاءه فيها جنة عرضها السموات والأرض أعدت له ، لأنه اتقى الله فعمل ما أمره به ، واجتنب ما نهاه عنه ، يقول تعالى : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ ﴾ [الفرقان : ٧٥ - ٧٦]

التضحية

لا يتحرر المؤمن بإيمانه من سطوة الجبابرة وطغيان الظالمين ، إلا إذا كان صادقاً فى إيمانه ، ولا تناله الطمأنينة إلا إذا صدَّق عملُه قولَه ، فالإيمان — فى العقيدة الإسلامية — ليس قولاً يُعْلَن فقط ، ولا شهادة ينطق بها اللسان وحده ، ولا تظاهراً أمام الناس بتلاوة آيات من القرآن الكريم فى مقام الاستشهاد على شدة ارتباط المرء بالإسلام ، أو الاستدلال عند الضرورة على الانتماء إلى الجماعة الإسلامية .

كذلك ليس الإيمان — فى العقيدة الإسلامية — نصائح يرددها الإنسان بلسانه لِيُسْمِعها الآخرين ، ولا دراسة يتقنها لتعليمها لغيره احترافاً ، وإنما هو تصديق بالقلب ، يُقَوِّم السلوك ، ويدفع الإنسان إلى التضحية بالمال والنفس فى سبيل إعلاء كلمة الله ، وترسيخ مبادئ الدين فى المجتمع سلوكاً ونظاماً . فالمظهر الخارجى الذى لا يكون له صدى لما وقر فى القلب لا يعد إيماناً بالمعنى الصحيح ، ولهذا رد الله على الأعراب ادعاءهم الإيمان ، لأنه لم يكن صادراً عن القلب ، يقول تعالى : ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ ﴿١٤﴾ ﴾ [الحجرات : ١٤] ، أى أنكم لم تؤمنوا حقيقة بالإسلام ، و لم يستقر الإيمان فى قلوبكم ، إذ كل ما فى الأمر أنكم أعلنتم فقط رضاكم بالإسلام أمام الملأ ، إما خوفاً ووقاية ، أو طمعاً فى دنيا ، فإن قلتم أنكم أعلنتم الإسلام ديناً لكم كنتم صادقين فيما تقولون ، ولكن قولكم : أنكم آمنتم بالله فهو غير صحيح ، لأن للإيمان مقتضيات تستوجب التضحية : وهى إما بالنفس أو المال ، أو بهما معاً ، وكذلك بالولد إن كان هناك ولد ، و لم يكن الإيمان لحظة ما سبيلاً إلى النفع والمغانم ، ولا طريقاً إلى الحياة ومتاعها .

فالإيمان تصديق بالقلب يحمل المؤمن على البذل والعطاء دون انتظار لمنفعة دنيوية ، أو نعيم عاجل ، إنما يكون هدفه طاعة الله وإحقاق الحق ، وتطبيق النظام الإسلامى . ولا يألو المؤمن جهداً فى سبيل تحقيق ذلك ، ولو أدى الأمر إلى بذل كل ما يملك من حياة وغيرها ، يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحجرات : ١٥]

فالإيمان بالله رسالة شاقة ، وطريقها عسير ، فهى تتطلب من المرء أن يتنازل عن المال ، الذى تسعى النفوس عادة إلى جمعه ، وقد تسعى إلى اكتنازه ، كما يقوم الإيمان الصادق على إيثار الموت على الحياة ، وهى أعز ما يحرص الإنسان عليه ، وأكثر ما يجبن بسببه .

وليس هذا طريقاً سهلاً ؛ إذ طريق المؤمن مليء بالصعاب ، وملغم بالمحن والأزمات ، بل تكاد تكون الصعاب هى السمة الغالبة فى حياة المؤمن ، وتلك من الأمور البديهية ، وإلا ادعى كثير ممن لم يخترق الإيمان شغاف قلوبهم أنهم أصدق الناس إيماناً ، يقول تعالى :

﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [آل عمران : ١٨٦]

فمن كان هذا شأنه فى إيمانه ، وصدق عقيدته ، مكن الله له فى الأرض ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة ، يقول تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النور : ٥٥]

كما يرضى الله عنه ، فيجزيه فى الآخرة جزاءً حسناً ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾ ﴾ [البينة : ٧ - ٨]

فمن يحرص على الإيمان بالله ، لا يكون هدفه جزاءً دنيوياً ، ولن ينتظر من وراء إيمانه اليسر فى الحياة الدنيا ، فهو عاقد العزم على مواجهة الصعاب ، وملاقاة المتاعب ليحقق ما أمره الله به ، وعند ذلك سينال ما وعد الله به المؤمنين من الاستخلاف فى الأرض والثواب فى الآخرة ، وسوف يتحقق ذلك لكل من آمن و لم يرْتب ، وجاهد فى سبيل الله بماله ونفسه جهاداً خالصا لوجهه ﷻ .

الإنسانية

يحرر الإيمان الصادق صاحبه من العبودية لغير الله ، فلا يخضع لأحد سوى الله ، ولا يرفع غيره من الموجودات - أياً كان - إلى مستواه فى العبادة والاحترام ، يقول تعالى :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴿١٥١﴾ ﴾ [الأنعام : ١٥١]

فالشرك ليس عصياناً لله فحسب ، بل دليل أيضاً على أن المشرك انتقص من قيمته الإنسانية ، لأن من يترل ّالله من عليائه إلى مستوى البشرية ، أو يرفع إنساناً مثله — أو أى شيء من المخلوقات الأخرى — إلى مستوى الألوهية ، يكون قد وضع الخالق والمخلوق فى مستوى واحد . وفى الوقت نفسه يكون قد حط من قدر نفسه ، وانتقص من قيمته ، حيث رفع من هو فى مستواه ، أو أدنى منه إلى درجة أعلى منه ، فيخضع له خضوع عبادة ، ويتزلف إليه تزلف المستعبد المسكين . ولا يكون المؤمن كذلك ، بل لا يجوز له أن يرتكب هذا الإثم فى حق نفسه ، لأن الله لا يرضى له هذا أبداً ، فهو يريد من المؤمن أن يعرف قدر نفسه وحقها فى الوجود ، ويقدر غيره أيضاً حق قدره ، فلا يترل أحداً من مكانه ، ولا يرفع مخلوقاً إلى مرتبة لا يستحقها .

كما يهذب الإيمان سلوك المؤمن ، فيجعله كريماً فى معاملته مع أقاربه ، سواء كان هؤلاء الأقارب آباء أم أبناء أم إخوة أم غيرهم من ذوى الأرحام . فقد بين الله للمؤمن أن للأبوين فضلاً عليه ، لما لهما من أثر كبير فى حياته ؛ إذ كانا السبب فى وجوده — أو بتعبير أدق : وسيلة وجوده — وربياه صغيراً ، ورعياه كبيراً ، فلا ينبغى له أن يهملهما عندما يمران بمرحلة الحياة الأخيرة ، فعليه أن يوفر لهما فى هذه المرحلة كل رعاية مادية ، كما يقدم لهما ما يجعلهما يحسان منه الاحترام والتوقير ، فلا يجرح إحساس أى منهما ، مهما كان هناك من فرق فى الأوضاع الاجتماعية ، والمستويات العامة بينه وبينهما ، يقو تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ

أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا
﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا
﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء : ٢٣ - ٢٤]

فيجب على المؤمن أن يبذل ما وسعه الجهد مع أبويه ، حتى لا يضيق صدرهما به ، فلا يجعلهما يحسان بأنهما عبء عليه فى التكلفة والنفقة ، ولا ينبغى أن يبدو منه ما يذكرهما بضعفهما ، أو يشعرهما بأنه يتمنى التحرر من مسئوليتهما .

وعلى الرغم من أن الله وضع فى الوالدين غريزة العطف على الأبناء ، والميل فطرياً إلى رعايتهم ، فقد أوصاهما بعدم التبرم بنفقتهم ، لأن الله هو الذى يرزقهم جميعاً ، فقال تعالى :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴿١٥١﴾ ﴾ [الأنعام : ١٥١]

فحرمت الآية قتل الأولاد تخلصاً من أعبائهم ، إذ ناشدت الآباء ألا يقدموا على ذلك ، لأن الله فى واقع الأمر هو الذى يرزق الطرفين معاً .

ومما يرتفع فى الحرمة إلى مستوى قتلهم : التبرم بهم ، وقهرهم ، وسبهم ، والتضييق عليهم ، بحيث يقعون تحت شعور نفسى عميق ، بأنهم عالة ، أو بأنهم عبء على الوالدين ، الأمر الذى يعوق تطورهم حتماً ، ويكوِّن عندهم مركب النقص لوجودهم ، وإحساسهم بعدم قيمتهم فى الحياة .

ومن هنا كان المؤمن على سبيل الحقيقة ، هو ذلك الإنسان المتفائل فى حياته ، الذى يملأ جوانب نفسه بالأمل فى الله ، وبالتوكل عليه فى مسعاه ، إذ ربما ما ينفقه على ولد له كان سينفقه على مرض يصيبه ، وشتان بين الإنفاق على مرض يضعف أو يميت ، والإنفاق على ولد يحيا ويزدهر .

العطف والرعاية

يغرس الإيمان فى نفس الإنسان حب الخير للغير ، سواء كان هذا الغير قريباً أم غير قريب ، وسواء قرب جواره فى السكن أم بَعُد ، يقول تعالى : ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾[النساء : ٣٦]

ومن أولى الناس بالعطف والرعاية بجانب الوالدين والأبناء : الزوجة ، لأنها تُكوِّن معه خلية واحدة فى المجتمع ، فلو تنافر قطبا هذه الخلية ، اختل التوازن فى الحياة الاجتماعية .

وهى سكن له ، فإذا لم يجد لديها الاطمئنان ، اضطربت حياته ، يقول تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الروم : ٢١]

ولهذا رسم القرآن الكريم العلاقة بينهما على أساس حسن المعاشرة ، ورعاية كل منهما لحقوق الآخر ، وقيام كل طرف بما عليه من واجبات تجاه الآخر ، فلو التزم الجانبان بما رسمه القرآن الكريم لهما ، لرفرفت أجنحة السعادة على حياتهما الزوجية ، ولعاشا فى حب وسعادة ، يحدوهما الأمل فى المستقبل ، ويحف بهما النجاح فى كل ما يباشرانه من أعمال .

فقد وصى الإسلام الرجل أن يظهر لخطيبته ما يؤكد لها أنه يحبها ، وذلك يكون – بالإضافة إلى الظواهر العاطفية التى تبدو على ملامح الخطيب عند اللقاء – بتقديم الهدايا لها ، ولو كانت غير ذات قيمة من الناحية المادية ، لأن قيمتها بين المحبين تكمن فيما تعبر عنه من مشاعر تجاه الطرف الآخر ، يقول رسول الله ﷺ " **التمس ولو خاتماً من حديد** " ، أى إعطها شيئاً حتى ولو كان ما تعطيه خاتماً من حديد ، لأن ذلك يغرس فى

قلبها المودة والمحبة . وما يشاع فى الغرب عن الإسلام من أنه فرض مهراً على الرجل ، ليشترى به المرأة ، ليس صحيحاً ، لأن المهر ليس إلا رمزاً للحب والائتناس بالزوجة ، حيث يشعرها بأنه راغب فيها ، ومستعد للتضحية فى سبيل إرضائها ، وما يقدمه لها هو ملكها لا يأخذه أحد منها ، فلا ينطبق عليه أركان الشراء .

فإذا انتقلت معه إلى بيت الزوجية ، فإن السلوك القائم على احترام كل طرف للآخر ، وحفظ حقوق كل طرف ، هو الإطار الذى رسمه الإسلام للحياة الزوجية ، فقد أعطى المرأة الحق فى أن تحتفظ بمالها لنفسها ، وتستثمره كما تشاء ، دون أن يتدخل الرجل فى فرض رأى عليها ، أو إرغامها على اتجاه معين ، فهى مستقلة فى المعاملات المادية استقلالاً تاماً . أما إذا تنازلت هى عن هذا الحق عن طيب خاطر لزوجها ، فلا يحرم الإسلام عليها ذلك .

كذلك يفرض الإسلام على الرجل القيام بكل ما تتطلبه المعيشة من نفقات ، دون أن يفرض على المرأة شيئاً من ذلك ، غير أنه حثها على مساعدة الزوج فى هذا الجانب ، إذا كان دخله لا يكفى لمتطلبات الحياة ، وذلك لا يكون من باب الإلزام ، الذى يؤخذ بقوة القانون والقضاء ، بل من باب حسن المعاشرة ، فما دامت هى شريكة حياته ، فينبغى عليها من باب الإنسانية أن تقدم له يد المعونة ، إن كان هو فى حاجة إلى ذلك ، وإلا أصبحت الحياة بينهما فاترة ، إن لم تصل إلى حد التنافر والتشاحن ، وذلك مخالفاً لأمر الله ﷻ حيث يقول : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ (١٩) ﴾ [النساء : ١٩]

وكما فرض الإسلام على الرجل الإنفاق على بيت الزوجية – لأن الغالب الأعم فى المجتمعات البشرية أن الرجل هو الذى يسعى لكسب قوت الأسرة – فرض على المرأة أن ترعى شئون البيت ، وتربية الأولاد بما يضمن للحياة الزوجية عيشة سعيدة . فإن شاركت المرأة الرجل فى السعى على الرزق – أى إذا خرجت للعمل – فيجب على الرجل ألا يتركها تتحمل العبء وحدها مضاعفاً ، بمعنى ألا يتركها تعمل وترعى البيت ، دون أن يشاركها على قدر المستطاع لتخفيف العبء عنها . ولا ضير فى ذلك ، فقد سئلت عائشة رضى الله عنها عما كان النبى ﷺ يصنع فى بيته ، فأجابت : " **كان يكون فى مهنة أهله – أى فى خدمة أهله ـ ، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة** " ، فيستفاد من

هذا الحديث أن النبى ﷺ كان يساعد أهل بيته فيما يقومون به داخل البيت . وعليه ، فإذا خرجت المرأة إلى العمل لتساعد فى تحسين الحياة المادية ، فلا أقل من أن يؤدى الرجل ما يخفف عنها العبء ، لأن ذلك من حسن المعاشرة التى وصى الله بها فى كتابه العزيز .

فلو التزم كل فرد فى الأسرة بتأدية ما عليه من واجبات إزاء الآخرين ، وحفظ حقوق كل فرد فى الأسرة ، سواء فى ذلك الآباء والأبناء ، لقامت الخلية الأولى فى المجتمع على أساس متين ، ولأرسيت قواعد متينة فى مجال الأخلاق ، مما سيكون له أثر فعال فى معاملة أفراد الأسرة مع بنى وطنهم من الأسر الأخرى .

فإذا انتقلنا من الأسرّة إلى دائرة أوسع فى المجتمع ، لوجدنا أن الإسلام وصى خيراً بذى القربى ، وأمر بالمحافظة على صلة الرحم ، فقال تعالى : ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنفال : ٧٥] ، وقال رسول الله ﷺ : " **خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى** " ، لأن من لا يرحم قريبه ، فهيهات أن يكون فى قلبه رحمة لمن لا يمت إليه بصلة قرابة ، ومن لا يقدم العون لمن هو أقرب إليه من غيره ، فنادراً ما تكون لديه العاطفة التى تدفعه إلى مد يد العون لمن يحتاج إلى المساعدة ، ومن انتزعت من قلبه الرحمة على أهله ، وذوى عشيرته ، فَقَدْ فَقَدَ الشعور الذى يوجهه إلى العطف على الآخرين من بنى جنسه . ولهذا كان منهج الإسلام فى تربية الفرد قائماً على أسس تعويد الإنسان على العطف والحنان لمن يليه فى القرابة أولاً ، لأن ذلك أقرب وأسرع فى غرس مبدأ الانتماء إلى المجموع ، ذلك الانتماء الذى يشعر الفرد بأن كيانه مرتبط بوجود الهيئة الكلية لعشيرته ، فيدفعه ذلك إلى المحافظة على كل فرد فيها ، ويغرس فيه حب التعاون ، حتى لا يتصدع الكيان الذى ينتمى إليه ، فيكون فى ذلك فناء وضياع لذاته أيضاً .

ولم يطلب الإسلام من المسلم أن يرعى أقرباءه من الجانب المعنوى فقط ، بل حثه على تقديم العون المادى لهم ، لا على اعتبار أن ما يقدمه لهم من باب الإحسان على الفقراء والمساكين ، بل من زاوية أنهم أقرباؤه ، لهم حق فى ماله ، ماداموا عاجزين عن كسب ما

يقتاتون به ، يقول الله تعالى : ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الروم : ٣٨] ، ويقول : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة : ١٧٧]

فيفهم من تقديم حق ذوى القربى فى هذه الآيات على حق غيرهم من الفقراء ، أن لهم المنزلة الأولى فى تقديم العون المادى لهم إن كانوا فى حاجة إليه ، وما ذاك إلا لأن الإسلام يريد أن تُبْنَى هذه العلاقة على أساس متين ، لأنها اللبنة الأولى — بعد لبنة الأسرة الصغيرة — فى المجتمع ، ولا تستقيم حال أى مجتمع ويشتد عوده إلا إذا كانت الوحدات التى يتركب منها صلبة قوية ، قادرة على مواجهة تيارات الحياة ، وتقلبات الزمن التى تقصف كل بناء مفككة أوصاله ، وممزقة خيوط الروابط الأسرية فيه ، ولهذا جعل لكل من يقدم شيئاً لقريبه أجران : أجر القرابة ، وأجر الصدقة ، فقد روى النسائى والترمذى أن رسول الله ﷺ قال : **« الصدقة على المسكين صدقة ، وهى على ذى رحم ثنتان : صدقة وصلة ».**

* * *

حث الإسلام على رعاية الجار ، سواء كان ذلك فى المعاملة ، أو فى تخفيف ما يعانيه الجار من نوائب الدهر ، وكوارث الزمن ، إذ من حق الجار على جاره ألا يصدر منه ما يؤذيه ، أو ينغص عليه صفو هدوئه ، فلا يحدث أصواتاً تزعجه ، ولا يأتى من الأعمال ما يلحق الضرر به ، وذلك تنفيذاً لأمر الله ﷻ فى كتابه العزيز ، حيث يقول : ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ

وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ ﴿٣٦﴾ [النساء : ٣٦]

فجاءت الوصية بالجار مع الوصية بعدم الإشراك بالله فى آية واحدة ، وما ذاك إلا لأهمية علاقة الإنسان بجاره فى التعاليم الإسلامية ، لأنها الحلقة التالية — بعد حلقة ذوى القربى — فى السلسلة الاجتماعية التى ينبغى أن تكون متماسكة ، لتقوم الحياة على أساس متين ، وركيزة قوية . ومما يؤكد أمر الإسلام بالإحسان إلى الجار قول رسول الله ﷺ فيما ترويه عائشة رضى الله عنها : " **مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه** ".

فالإسلام يطلب من المسلم أن يتأدب مع جاره والمشارك له فى السكن ، سواء كان هذا الجار مسلماً أو غير مسلم ، إذ يروى أبو ذر عن عبد الله بن عمر ﷺ : أنه ذبحت شاة فى بيته - أى بيت عبد الله بن عمر — فقال : أأهديتم لجارى اليهودى ؟ فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : " **مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه** " .

فلا يجوز لمسلم أن يأتى من الأفعال ما يؤذى جاره ، فلا يستعمل جهاز الراديو أو غيره من الأجهزة على نحو يزعج جاره ، أو يعكر عليه صفو هدوئه ، أو يقلقه فى فترات الراحة ، أو يشوش عليه أثناء عمله الذى يحتاج إلى جو هادئ . كذلك لا يستخدم النوافذ والشبابيك استخداماً يسيء إلى أحد من جيرانه ، ولا يستعمل سيارته بطريقة تقلق النائمين ، أو تضايق الناس فى مساكنهم ، فتحول بينهم وبين الاستمتاع بالهدوء والراحة ، لأن من يفعل ذلك فإنه يرتكب إثماً ، قد يخرجه من حظيرة الإيمان الكامل ، لما يرويه أبو شريح عن رسول الله ﷺ أنه قال : " **والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن** " قيل : من يا رسو الله ؟ قال : " **الذى لا يأمن جاره بوائقه** " ، كما ذكروا لرسول الله ﷺ امرأة تصلى الكثير ، وتصوم الكثير ، ولكنها تؤذى جارها ، فقال : " **هى فى النار** " .

كل ذلك ينطوى عليه الأمر بالإحسان إلى الجار ، ذلك أن الإحسان يشمل — فيما يتمله — عدم إيذاء الجار ، أياً كان نوع هذا الإيذاء ومصدره ، كما يتضمن محاولة التخفيف عنه إذا ألم به كرب ، ومساعدته فى حالة احتياجه إلى المساعدة ، فلو ألمت به

مصيبة فى عزيز لديه ، أو فيما عنده من مال وجب على الجيران أن يهرعوا لمساعدته ، كلٌّ على قدر طاقته . وكذلك لو كان فقيراً ، ليس عنده ما يقتات به ، فجيرانه مطالبون بالوقوف معه لاجتياز محنته ، فإن كان فى حاجة إلى عمل ، وجب على من يقدر على تدبيره له أن يقوم بهذا الواجب . وإن كان عاجزاً لا يقدر على كسب قوته وجب عليهم العمل على تدبير ما يقتات به ، ولا يتركونه يموت جوعاً يقول رسول الله ﷺ : " **والله لا يؤمن من بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم** " .

ومن الأحاديث التى فصلت حق الجار ، ما رواه معاذ بن جبل قال : قالوا : يارسول الله ! ما حق الجار على جاره ؟ قال : " **إن استقرضك أقرضته ، وإن استعانك أعنته ، وإن مرض عدته ، وإن احتاج أعطيته ، وإن افتقر عدت عليه ، وإن أصابه خير هنأته ، وإن أصابته مصيبة عزيته ، وإن مات اتبعت جنازته ، ولا تستطيل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه ، ولا تؤذيه بريح قدرك إلا أن تغرف له ، وإن اشتريت فاكهة فاهد له ، وإن لم تفعل فأدخلها سراً ، ولا تخرجها ولدك ليغيظ بها ولده .** "

هذه هى العناية بالجار ، وهى الدعامة الأساسية فى تكوين المرحلة الأولى لوحدة الجماعة ، إذ لو قامت وحدة بين الجار وجاره على أساس من المعاونة والمشاركة النفسية ، والوجدانية ، والمادية ، لأصبحت الجماعة التى تشيع فيها هذه الروح بين أفرادها من أشد الجماعات قوة واتحاداً ، وأكثرها إيجابية فى حياتها الخاصة والعامة ، وأصلبها عوداً فى مواجهة الأزمات ، وأوفرها إنتاجاً فى المجالات المختلفة ، فتكون أسرع فى بناء صرح الحضارة الإنسانية التى تنشدها كل شعوب الأرض .

إن الإسلام حين يوصى بالجار خيراً ، لا ينشد إلا سعادة الإنسان التى تنبع أساساً من الطمأنينة فى الحياة ، ولاشك أن إحساس الإنسان بأنه لن يضيع بين جيرانه لهو المصدر الأساسى فى وجود الطمأنينة التى تساعد على العمل المثمر ، فتسعد القلوب ، وتطمئن النفوس .

لم تقتصر تعاليم الإسلام على الحث على رعاية ذوى القربى والجار فقط ، بل شملت أيضاً الوصية بأن تكون المعاملة بين المسلمين – أياً كان موقعهم فى المجتمع – قائمة على

مبدأ الأخوة التى تقتضى أن يحافظ الإنسان على شعور أخيه ، وأن يكون عوناً له ، عندما يحتاج إلى مساعدة ، وذلك بأن يقف بجانبه عند الشدائد ، ويشد أزره فى الملمات ، ويكون درعاً يقيه شر المصائب ، وذلك امتثالاً لقول رسول الله ﷺ : **" مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ."**

فلا يكمل الإيمان إلا إذا أحس المؤمن أنه عضو فى كيان كلى : هو المجتمع ، وأن من واجبه المحافظة على أفراد هذا الكيان ، كما يحافظ على ذاته ، لأن وجود ذاته لا تتحقق إلا إذا كان الكيان الكلى الذى ينتسب إليه – وهو المجتمع – سليماً كله ، لا يعتوره ضعف فى أى جانب من جوانبه ، ولا تتفكك أوصاله بسلوك كل فرد طريقاً خاصاً به ، بعيداً عن الجماعة ، وقد حذر الرسول ﷺ من هذا العمل بقوله : **" إنما يأكل الذئب القاصية ."**

أمانة الكلمة وصلاح العمل

لا يكون الإيمان صحيحاً إلا إذا قامت العلاقة بين المسلمين على أساس من الصدق فى الشعور ، فلا تكون المعاملة قائمة على الخداع والمواربة ، والتناقض بين الظاهر والباطن ، والتضاد بين ما يخفى وما يعلن . فالمؤمن بالنسبة لأخيه صفحة بيضاء واضحة نقية ، لا تنطوى على جوانب سيئة . فكما حارب الإسلام الخداع فى علاقة المسلمين بالله ، فطلب منهم أن يكونوا مخلصين فى عبادته فى قوله تعالى : ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۝٣ ﴾ [الزمر : ٢ – ٣] ، نصحهم أيضاً بألا تنطوى قلوبهم على الغش والخداع لغيرهم ، فبشر من يصفى قلبه من الأمراض التى تهز وحدة المجتمع ، وتهدد كيانه ، بأن الجنة مكفولة له يوم القيامة ، إذ يروى أنس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ **" إن قدرت أن تصبح وتمسى ، وليس فى قلبك غش لأحد ، فافعل "** ثم قال لى : **" وذلك من سنتى ، ومن أحيا سنتى فقد أحبنى ، ومن أحبنى كان معى فى الجنة ."**

وما يشاع بين الناس من أن الخداع ضرب من الكياسة فى المعاملة ، هو فى واقع الأمر مكر سيء يحاربه الإسلام ، ويدعو إلى نبذه فى العلاقات الاجتماعية ، بل يحتقر كل من

يمارسه بهذه الصورة مع إخوانه فى المجتمع ، يقول تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ ﴾ [القلم : ١٠ - ١١] ، فبهذه الآية الكريمة ينصح المولى ﷻ رسوله الكريم بتجنب كل من يسعى إلى الإفساد فى مواربة وخداع ، لأنه إنسان مهين حقير ، لم يرع حقوق إخوانه فى المجتمع ، ولم يحافظ على الروابط الاجتماعية المقدسة ، فسعى إلى الإفساد فيما بينهم ، فارتكب بذلك جرماً فى حق الجماعة ، يحتم على كل من يراه أن يحاربه ، ومن أسلوب المحاربة : تجنب هذا الذى يسعى إلى تمزيق العلاقة الأخوية بين الناس .

ويندرج تحت هذا النوع من الخداع ما يعتبره البعض نوعاً من اللباقة الدبلوماسية ، لأنه عمل ينطوى على الغش والخداع ، الذى يحاربه الإسلام ، فالذى يعلن صداقته للدين وهو يحاربه : مخادع . والذى يعلن تودده للفقراء ، وهو ممسك البذل والإعطاء : مخادع . والذى يعلن حبه للإنسانية وهو جلاد أو مستغل : مخادع . والذى يعلن حسن العلاقة بينه وبين القيم الرفيعة ، والفضائل الإنسانية ، وهو مادى منحرف فى ماديته : مخادع .

فالخداع من أفتك الأمراض التى تهدد وحدة المجتمع ، إذ يقطع العلاقة بين أفراده ، ويمزق الروابط التى يقوم عليها بناء الحياة الاجتماعية فتقطع أوصال الأمة ، بحيث لا تقوى على بناء ، ولا تستطيع المحافظة على ما لديها من إنجازات حضارية ، بل ينهار كل ما عندها بمجرد وجود هذه الظواهر الاجتماعية التى تفكك تماسك الأمة وترابطها ، ومن هنا جاءت آيات عديدة فى القرآن الكريم تحذر المسلمين من العادات السيئة ، التى تؤثر على وحدة الأمة وتماسكها ، فقال تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأنفال : ٤٦] ، وقال : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر : ٤٣] ، وقال : ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ

وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [النمل : ٥١ – ٥٢]

فالخداع نوع من أنواع المكر ، وهو من أكثر الأسباب فتكاً بوحدة الأمة ، إذ هو يفرقها شيعاً وأحزاباً ، ويمزقها زمراً وأنساباً ، ومن هنا كان لابد من الالتزام بما أوصى الله به ، لأنه لو نفذ المسلمون ما أمر الله به فى مجال العلاقات الاجتماعية لصار المجتمع وحدة صلبة ، لا تؤثر فيها عواصف الزمن ، ولا تبال منها كوارث الدهر ، وقد جاء التعبير عن هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ آل عمران: ١٠٣

أمر الإسلام المؤمنين بألا يقفوا موقفاً سلبياً إزاء ما يحدث بين إخوانهم من نزاعات وخصومات ، ففرض عليهم التدخل بين المتنازعين بغية الإصلاح فيما بينهم ، فإن تجاوز أحد الخصمين الحدود المشروعة فأبى إلا أن يستمر فى المنازعة مع خصمه ، فعلى المسلمين أن يوقفوه عند حده ولو اقتضى الأمر قتاله ، يقول تعالى : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحجرات : ٩ – ١٠]

كذلك أوصى الإسلام بتحقيق العدالة فى المجتمع ، فلا يجوز لذوى قوة وبطش فى المجتمع أن يستغل هذا المركز فى أكل حقوق المواطنين ، ولا يحل لصاحب مال أو جاه أن يستخدمه

فى استغلال الناس واستعبادهم ، ولا ينبغى لمن بيده مصادر الطعام والشراب أن يتصرف فيهما على نحو يسيء للمواطنين . فكل قادر على تخفيف آلام الناس وتسهيل الحياة عليهم ، وجب عليه أن يقدم ما عنده للمحتاج إليه . فعلى من يملك المال ويباشر استثماره أن يراعى أن للآخرين من أفراد المجتمع المحرومين العاجزين عن العمل حقاً يتعين أداؤه دون مقابل منهم ، يقول تعالى : ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿٧﴾ ﴾ [الحديد : ٧] ، ويقول : ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [المعارج : ١٩ - ٢٥]

وقد ذكر القرآن الكريم الأصناف الذين يحتاجون إلى العون المادى ، فقال : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٦٠﴾ ﴾ [التوبة: ٦٠]

هذا بالإضافة إلى أنه مطالب بإعطاء من يعمل معه حقه بالكامل ، فلا يبخسه أجره على عمل يؤديه ، ولا يكلفه أكثر من طاقته فى العمل ، وإن احتاج إلى عون فى أدائه شاركه فيه ، يقول رسول الله ﷺ : " **إخوانكم خولكم** (أى خدمكم) ، **أطعموهم مما تطعمون أنفسكم ، واكسوهم مما تلبسون ، وإن كلفتموهم بأمر لا يطيقونه فأعينوهم على أدائه** ".

ويأمر الإسلام صاحب المال الذى يتعامل مع الناس بألا ينقصهم الكيل والميزان فى البيع والشراء ، ولا يخدعهم أو يغشهم فى العقود التى يبرمها معهم ، ولا يكرههم بطريق مباشر ،

أوغير مباشر ، على قبول ما يلحق الضرر بهم ، يقول تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ ﴾ [هود : ٨٤] ، ويقول : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [المطففين : ١ – ٣]

فإذا قامت العلاقة بين المواطنين على أساس الشعور بالأخوة ، فحافظ كل فرد على حقوق الآخرين الذين يعيشون معه فى المجتمع ، وبذل من يقدر على العطاء للمحتاجين كل ما من شأنه أن يخفف عنهم عبء الحياة ، والتزم جميع الأفراد بالتواصى بالخير والنهى عن المنكر ، لأصبح المجتمع متماسكاً ، قوياً ، قادراً على الإنجازات الحضارية فى جميع الميادين وذلك ما ينشده الإسلام للمجتمعات الإنسانية .

والصدق من الصفات الحميدة فى الإنسان ، بل إنه من أفضل الصفات الإنسانية على الإطلاق ، ذلك أن من يتحلى به فى القول وفى العمل فهو لبنة صالحة فى بناء المجتمع الإنسان ، لأنه من أهم الدعائم التى تستقيم بها حياة الفرد ، وتصلح بها العلاقات الاجتماعية ، وتقوى بها الروابط بين الناس فى المجتمع .

ولهذا حث الإسلام عليه ، ووعد الصادقين جنات النعيم ، فقد ورد فى مدح الصدق والصادقين فى القرآن الكريم أكثر من خمسين مرة ، منها قوله تعالى : ﴿ لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأحزاب : ٢٤] ، ويقول : ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾

ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [آل عمران : ١٥ - ١٧]

فذكر أن الصدق من صفات هؤلاء الذين سينعمون بجنات تجري من تحتها الأنهار ، يقول تعالى : ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ ﴾ [المائدة : ١١٩] كذلك ورد فى حديث رسول الله ﷺ ، ما يدعو المسلمين إلى التحلى بالصدق فى القول والعمل ، فقد روى أبو هريرة أن النبى ﷺ قال : **« من أفتى بغير علم كان إثمه على من أفتاه ، ومن أشار على أحد ، وهو يعلم أن الرشد فى غيره ، فقد خانه ».**

فيبدو من هذا الحديث أن الرسول ﷺ ينبئنا أن من الخيانة عدم الصدق فى المشورة ؛ وعدم الإخلاص فى النصيحة ، فالذى يشير على غيره بأمر ، وهو يعلم أن الهداية والرشد فى غير ما أشار به ، فقد خدعه وأضله ، إذ لم يصدقه فى النصح ، وهو بهذا قد خان العهد الذى ينبغى أن يكون بين المسلم وأخيه المسلم . كما روى أبو هريرة ﷺ أن النبى ﷺ قال : **« حق المسلم على المسلم ست »** قيل : ما هن يارسول الله ؟ قال : **« إذا لقيته فسلم عليه ، وإذا دعاك فأجبه ، وإذا استنصحك فانصح له ، وإذا عطس فحمد الله فشمته ، وإذا مرض فعده ، وإذا مات فاتبعه »** ، فجعل الحديث أن من حق المسلم على أخيه المسلم النصح ، ولا يكون الأمر نصحاً إلا إذا صدر عن إخلاص واعتقاد بأن فيه الهداية والرشد .

فالصدق صفة مطلوبة ، وفضيلة يجب أن يتحلى بها كل مسلم ، فإن لم يفعل ذلك كان جزاؤه النار وبئس المصير ، فقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : **« عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صادقاً . وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً ».**

فالحديث يحث على الصدق ، ويوضح أنه سبيل إلى البر والخير والإحسان فى الحياة الدنيا ، سواء كان للإنسان الذى يلتزم بالصدق ، أو لمن يتعامل معه ويتصل به ، بالإضافة إلى أنه طريق يوصل صاحبه إلى ثواب الله فى الآخرة .

كما حذر المسلمين من الكذب ، فبين أن عاقبته سيئة على الكاذب ، فهو مهلكة له ولمن يتعامل معه ، ذلك أن أثره السيئ يعود عليهم جميعاً ، فهو موصل إلى الفجور ، والموبقات ، والتصرفات المرذولة فى الحياة الدنيا ، ثم هو بعد ذلك طريق يقود صاحبه إلى النار فى الآخرة .

وكما حث الإسلام المسلمين على الالتزام بالصدق فى القول والعمل ، ووعد من التزم به جزاء فى الدنيا ونعيماً فى الآخرة ، كذلك أمرهم بالصدق فى العمل ، فقد قال رسول الله ﷺ : **« إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه »**

وقد ورد ذكر العمل الصالح والحث عليه فى آيات عديدة من القرآن الكريم ، ولو رمت تلاوة تلك الآيات التى ورد فيها حث المؤمنين على العمل الصالح ، والإخبار بالجزاء المعد لمن يمتثل لأمر الله فيعمل صالحاً ، لضاق بنا المقام ، ولهذا سوف أكتفى بذكر بعض منها ، يقول الله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل : ٩٧] ، ويقول تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٢٧٧]

ويفهم من تكرار العمل الصالح والحث عليه فى القرآن الكريم أن له أهمية خاصة ، ودوراً أساسياً فى حياة الإنسان الدنيوية والأخروية ، ذلك أن الالتزام بأداء الأعمال على وجهها الأكمل ، بحث تصير صالحة ، يعود على الإنسان فى الحياة الدنيا بالخير وفى الآخرة بالثواب .

كيف يكون أداء الفرائض الدينية وسيلة لنيل الخير فى الدنيا ؟

يفهم من هذا السؤال أن السائل يقصر مفهوم العمل الصالح على أداء العبادات فقط : من صيام ، وصلاة ، وزكاة ، وحج ...وغيرها .

قد يكون هذا المفهوم شائعاً بين الناس ، فعندما يقال : فلان صالح ، فإنهم يقصدون أنه ملتزم بأداء الفرائض ، أو هو دائم الحضور فى المساجد ، ولا يفتر عن تسبيح الله وتحميده ليلاً أو نهاراً .

وليس الأمر كذلك ، فإن الصالح من الأعمال لا ينحصر فقط فى أداء العادات المفروضة ، أو التطوع بالسنن الواردة فى كتب الدين ، بل إنه يتجاوزها إلى الأعمال التى يظن كثير من الناس أنها دنيوية ، إذ عندما وصف العمل الصالح فى القرآن الكريم لم يكن المقصود العبادات فقط ، بل كل ما يباشره الإنسان من أعمال ، سواء أكانت زراعية أو صناعية أو غيرهما من الأعمال التى تتعلق بشئون الحياة للفرد وللمجتمع .

فالفلاح الذى يتقن عمله فى حقله ، يكون قد أدى عملاً صالحاً يعود نفعه عليه فى الدنيا ، وذلك بأن تصلح زراعته فتؤتى ثماراً طيبة ، يصيبه منها ربح مادى ، كما يخدم بذلك وطنه الإسلامى ، لأنه باجتهاده فى زراعته ، وإنتاجه محصولاً طيباً ، يكون قد أسهم فى حل المشاكل الغذائية فى المجتمع ، وفضلاً عن ذلك كله ، فالله سبحانه يمنحه ثواباً فى الآخرة على ما قدم لمجتمعه فى الدنيا .

كذلك العامل فى المصنع ، إذا التزم بأمر الله ، ونفذ ما وصاه به فى كتابه العزيز ، بأن يكون عمله عملاً صالحاً ، فيجب عليه بمقتضى هذا الالتزام أن يتقن صناعته ؛ فلا يخرج من تحت يده إلا ما يكون صالحاً للغرض الذى من أجله صُنِع . فالعامل المسلم الصالح هو الذى يعنى بما يصنع ، بحيث لا يخرج من تحت يده إلا الصناعة المتقنة ، فلو فعل هذا لكان عمله صالحاً ينال عليه خيراً فى الدنيا ، وذلك بسبب شهرة الإتقان التى تؤدى إلى أن يقبل الناس على شراء منتجاته ، كما يعود بالخير أيضاً على أمته الإسلامية ، لأن شهرة إتقانها فى الصناعة يجعلها تحتل مركزاً مرموقاً بين الأمم ، ويحمل الناس على احترامها ، وفى ذلك خير

للإسلام ، ودعوة مباشرة إلى غير المسلمين للتفكير فى هذا الدين الذى ربى أتباعه تربية جعلتهم يحرصون على إتقان ما يصنعون ، خوفاً من عقاب الله ، وطمعاً فى ثوابه .

لعلك أدركت من هذا الشرح أن العمل الصالح الذى ورد ذكره كثيراً فى القرآن الكريم ليس مقصوراً فقط على أداء الفرائض الدينية ، بل يشمل كل عمل يقوم به الإنسان ، ولذا جاء عطف الصلاة والزكاة عليه فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ ﴾ [البقرة : ٢٧٧]

فهذا يشير إلى أن العمل الصالح يشتمل على كل ما يباشره الإنسان فى حياته ، وأن الجزاء سيكون أيضاً لمن أتقن عمله ، وأحسن صناعته . والعقاب سيلحق المهملين الذين يخدعون الناس ، ويغشونهم فيما يقدمون لهم من صناعة غير متقنة .

فالإخلاص فى العمل من الوصايا التى وصى بها الله عباده ، فقد قال فى كتابه العزيز : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ ﴾ [الزمر : ٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأعراف : ٢٩] ، وقال : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴿٥﴾ ﴾ [البينة : ٥]

فالإخلاص فى العبادة شرط أساسى لتنال القبول والرضا من الله ﷻ ، وهو حصن من الحصون التى يحتمى بها الإنسان ضد غواية الشيطان وضلاله ، فقد جاء فى القرآن الكريم حكاية عن إبليس قوله : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ص : ٨٢ – ٨٣]

o.lolkandi.com

فمن يخلص فى العبادة لله ، فسوف ينال رضوان الله ، وتهذيب النفس ، وتحصينها ضد الوقوع فيما يغضب الله ، حتى لا يخسر الإنسان دنياه وآخرته .

أما الخسران فى الدنيا ، فيتمثل فى إشاعة الفحشاء والمنكر فى المجتمع ، فينحل عقده ، وتضطرب أموره ، فينتشر الفساد فى الأرض . وإذا انتشر الفساد عمت البلوى ، وضاع الأمن والأمان ، فتصبح الحياة كئيبة ، لا طعم لها ولا استقرار فيها ، وذلك هو الخسران المبين .

أما فى الآخرة فعقاب الله ، وكفى ذلك إذلالاً وعذاباً لا يعلم مداه إلا الله . فيجب على كل مؤمن أن يخلص العبادة لله وحده ، وأن يدعوه خالصاً لوجهه ﷻ حتى ينال الخير فى الدنيا والثواب فى الآخرة .

وكما أن الإخلاص فى العبادة شرط لصحتها ، وركن أساسى لنيل ثواب الله ، كذلك الإخلاص فى الأعمال الدنيوية مطلوب شرعاً ، فإن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصاً ، فهذه إشارة للمسلم ، وطلب منه أن يكون فى جميع أعماله مخلصاً ، وأن يؤدى ما يكلف به على خير وجه ، وإلا لحقه غضب الله ولعنته . فقد ورد أن الله يحب إذا عمل الإنسان عملاً أن يتقنه ، فإن لم يتقنه غضب الله عليه . ولا يكون الإتقان ، ولا يتحقق ، إلا إذا أخلص العامل فى عمله ، وحرص على أن يؤديه على الوجه الأكمل .

فالإتقان فى العمل ، والإخلاص فيه مطلوب ، لينال الإنسان الرضا من الله . وليس الإتقان المطلوب مقصوراً على العبادات ، بل هو مطلوب فى كل عمل ، سواء أكان عبادة : أو عملاً يتعلق بالأنشطة الدنيوية ، ففى العبادة يطلب من المسلم أن يؤديها على نحو يؤدى إلى الهدف الذى من أجله فُرِضَت ، فتأدية الصلاة — مثلاً — ليس القيام بالركوع والسجود فحسب ، بل لا يكون أداؤها كاملاً إلا إذا أدت إلى البعد عن الفحشاء والمنكر ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴿٤٥﴾ ﴾ [العنكبوت : ٤٥]

وروى عن أنس قال : دخل رسول الله ﷺ المسجد ، وحبل مشدود بين سارتين ، فقال : **« ما هذا ؟ »** قالوا : حبل نتكئ عليه ، قال . **« حلوه ، ليُصَلّ أحدكم نشاطه ، فإذا كسل ، أو فتر قعد . »** ، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : **« إذا قام أحدكم من الليل ، فاستعجم القرآن على لسانه ، فلم يدر ما يقول ، فليضطجع . »**

فحرص الرسول ﷺ على أن تؤدى الصلاة فى وقت نشاط الإنسان ويقظته ، حتى يكون واعياً لما يقول ، إذا وقف بين يدى الله ، وإعلانه عن عدم رضائه عن تأديتها فى حال الكسل أو الغفوة ، دليل على أن تأديتها عندئذ لا يحقق الغاية منها .

كذلك مطلوب من الصانع فى الصناعة ، إذا كان حريصاً على رضاء الله ومحبته ، أن يتقن عمله فيما يصنع ، أى يخلص فيه بالعناية فى اختيار النوع الأفضل ، وإجادة صناعته . ولا يخرج من تحت يده كمًّا لا ينفع ، وصوراً لا تؤدى الغرض المطلوب منها ، إذ التركيز على إتقان العمل وسيلة لترويج ما يصنع ، وأسلوب يضمن دوام العمل لمن يعمل ، واستمرار الثقة فيما يخر ج من تحت يده من آلات مصنوعة ، وأدوات معدة للاستعمال .

وفى التجارة يُطْلَب من التاجر أن يتقن عمله ويخلص فيه ، وذلك بالامتناع عن الغش والخداع ، وأن يلتزم فى دعايته عن السلع المعروضة حدود المعقول ، فلا يتعداه إلى المبالغة التى تؤدى إلى إعطاء صورة كاذبة عن السلعة للمشترى .

كذلك فى المجالات الأخرى ، سواء كانت ثقافية أم مجالات خدمات ، يُطْلَب من القائمين بها أن يتقن كل منهم عمله ، بحيث تُؤَدَّى الخدمات إلى مستحقيها ، أم تُوَصّل المادة الثقافية على وجه يحقق الفائدة منها .فالإتقان فى العمل والإخلاص فيه يقوم على نفى الخداع ، حتى يكون طريقاً إيجابياً لإصلاح المجتمع ، وسبيلاً سوياً يرضى الله عنه ، فيثيب صاحبه . وما تفريق القرآن الكريم بين عمل مثمر ، وآخر غير مثمر فى قوله تعالى :

﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الملك : ٢٢] إلا إرشاداً للمسلمين بأن يعنوا بنوع العمل قبل كَمِّه ، وبجودته قبل كثرته ، وبإيجابيته وثمرته قبل ضخامته .

ثورة فكرية

تقاس قيمة العقائد وأهميتها فى حياة الشعوب والمجتمعات الإنسانية بمقدار ما تحدثه فيها من تغييرات تنقلها إلى حياة أفضل مما كانت عليه قبل ظهور العقيدة ، وما تضيفه عليها من مظاهر تبعث الحيوية فى أرجاء المجتمع ، وتدفع عجلة النشاط الإنسانى إلى الأمام ، ليحرر الإنسان مزيداً من التقدم فى ركب الحضارة ، وليقفز فوق الدرجات فى سلم المدنية ، ليزداد رسوخاً فى الأرض ، فتمتد جذور شجرة الحياة لتزداد ثباتاً ، وتعلو فروعها فى السماء ، لتضفى على الإنسان راحة واطمئناناً ، وسكينة وأمناً ، وحينئذ تثمر له ما تقر له الأعين فى الدنيا ، وتفرح به النفس فى الآخرة ، يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [إبراهيم : ٢٤ - ٢٥]

وكلمة الإيمان مركز الكلام الطيب ومنبعه ، وأصل العمل الصالح وبدايته ، فبها يتحول الإنسان من الحيوانية إلى الملائكية ، ومعها يتغلب على مصاعب الحياة وآلامها ، وبفضلها يتخطى عقبات طريق المسيرة الإنسانية ، ويقوى على قهر وعورها ، وطى آمادها ، وعلى أركانها تقوم الحياة الإنسانية وتتطور ، فهى تدفع صاحبها إلى العمل الدءوب والإنتاج المتميز ، فيتدفق عطاؤه للحياة ولا يتوقف ، ويستمر تطوره فلا يتعثر ، ويمشى قدماً فلا يتراجع .

وفيما أحدثته العقيدة الإسلامية فى المسلمين الأوائل خير شاهد على هذا كله ، فلم يكن التحول الذى أحدثه الإسلام فيهم تحولاً عادياً ، عندما نقيسه بالمقاييس التقليدية فى حياة المجتمعات ، بل كان قفزات فى جميع الميادين ، وطفرات فى كلا الاتجاهين : الزمانى والمكانى ، سواء كان فى داخل الإنسان نفسه ، أم فى مظاهر الحياة حوله ؛ إذ غيرت العقيدة الإسلامية عقل المؤمن الجديد تغييراً كلياً وسريعاً ، حيث هزته هزاً عنيفاً فخلصته من

الضلال الذى ضُرِبَ حوله ، وقشعت عنه الظلام الذى ران على قلبه ، فانطلق بحيوية ونشاط يؤثر فى الحياة ويتفاعل معها ، ويتألق فى أرجائها مبدعاً ومبتكراً ، فوجد ذاته بعد أن فقدها عبر القرون المظلمة ، وأكد فاعليته فى مجال الحياة بصورة أذهلت من حوله ، وحيرت فى تلمس أسبابها الباحثين ، الذين غابت عنهم الحقيقة الواضحة ، **ألا وهى أن الإيمان قادر على أن يمكن صاحبه من عمل المعجزات .**

لقد أعاد الإسلام تشكيل العقل البشرى ، فهداه إلى العمل فى آفاق الدنيا الواسعة ، بل دفعه إلى البحث فى جوانبها المتعددة ، والتنقيب عن آثارها المتناثرة فى أرجائها ، ففى ذلك تأكيد لإنسانية الإنسان ، وكشف لأسرار الوجود ، حيث يهتدى إلى خالق الكون ومدبره ، فيصل بذلك إلى معرفة الله ﷻ ، بالإضافة إلى ما يعود عليه بالنفع فى حياته الدنيوية ، حيث يتوصل عن طريق عمل العقل إلى بناء حضارى ، يعود عليه فى حياته ، بما يضفى عليه سعادة ، وراحة ، وهدوءاً .

كيف جدث هذا الدفع الإيمانى القوى لإنسان بدائى ، قدراته العقلية محدودة ، وإمكاناته متواضعة ، وظروفه لا تساعده على أن يتفاعل بهذه السرعة مع متطلبات هذه العقيدة ، التى قادته إلى هذه القدرة الهائلة فى حياة المجتمعات الإنسانية ؟

ما السر فى أنه لم يحدث ما يمكن توقعه فى مثل هذا التقابل بين القطبين المتنافرين – وهما : متطلبات الإيمان ذات الأبعاد البعيدة ، وضعف الإنسان البدائى ، وعدم قدرته على تحمل ما يُطْلَب منه تحقيقه – من الانفصال والتباعد ، حيث تعجز قدرة الإنسان المحدودة عن التجاوب مع المطالب الجديدة ، التى تشده إلى الإسراع فى طريق التقدم ؟

لقد عجزت عقول بعض الناس عن استيعاب ما يطلبه الإسلام منهم ، فكفروا به ، لأن ضعفهم أعجزهم عن فهم متطلبات الإيمان ، لكن الذين آمنوا به تغلبوا على هذا العجز ، وقهروا فى نفوسهم بوادر الإحباط فسادوا عليها ، وساروا فى طريق الإيمان ملبين نداءه ، منفذين كل ما يطلب منهم أن يغيروه ، فأرسوا بذلك قواعد مجتمع الإيمان ، وبدءوا بناء حضارة كانت – ولا زالت – حديث المجتمعات البشرية كلها .

كيف كان ذلك ؟

المعرفة

تقوم الحضارة فى المجتمعات البشرية على أساس المجهود الإنسانى ، ولذا اختلفت نوعياتها وأبعادها ، باختلاف قدرات الإنسان الفكرية والعضلية . وتشكلت طبقاً للتركيبة التى يتكون منها : فسيولوجياً ، وفكرياً ، ونفسياً . وتأثرت بطريقة ديناميكية معها : عقلاً ، وأسلوباً ، ومنهجاً ، إذ هى لا تعتمد على جانب واحد من جوانب النشاط الإنسانى ، ولا ترتكز على عنصر دون آخر فى حياة الإنسان ، فهو وحدة متكاملة ومتداخلة ، يؤثر كل جزئية منها فى مسيرة التقدم الحضارى ، بمقدار ما يتمتع به من قدرة على الإسهام والتأثير فى ديناميكية الحياة .

فلو استعرضنا التحولات الكبيرة التى حدثت فى هذا المجال عند المسلمين الأوائل ، لتبين لنا أن العقيدة كانت من أولى العوامل وأهمها أثراً فى الحضارة الإسلامية . وليس ذلك بغريب ، لأنها حررت عقل الإنسان وكرمته ، ووضعته فى موقعه الصحيح ، الذى استطاع منه أن يؤثر تأثيراً بعيد المدى فى بناء الحضارة ؛ إذ بتحويلها الإنسان من الإيمان بآلهة متعددة إلى الاعتقاد فى إله واحد ، أخرجته من دائرة التشتت بين آلهة متعددة إلى وحدة الألوهية ، فهو تحول من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن تقديس الحجارة والأصنام والتماثيل والأوثان ، إلى عبادة الله الواحد ، الذى لا تلمسه الأيدى ، ولا تراه العيون . وهذه نقلة عقلية كبيرة ، ارتفع بها عقل الإنسان من القناعة والرضا بالمحسوس ، إلى التحليق فى آفاق تعلو على معطيات الحس القريب . فخرج بذلك من دائرة الملموس إلى التفكير فيما وراء الحس ، فأكسبه ذلك قدرة على التخلص من السلاسل التى قيدته بالمادة ، فارتفع عنها إلى الروحانية . وقد عبر القرآن الكريم عن هذا التحول ، فسماه خروجاً من الظلمات إلى النور ، يقول تعالى : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴿٢٥٧﴾ ﴾ [البقرة : ٢٥٧] ، ويقول : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ

ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴿١﴾ [إبراهيم : ١] ، فهو تحول كامل من النقيض إلى نقيضه ، إذ بعد أن كان الإنسان مغلولاً بالمادة ، لا يرى سواها ، ولا يؤمن إلا بما يشاهده منها ، إذ بالإيمان يطلقه من قيده ، ويحرره من أغلاله ، فيسبح فى آفاق المعرفة التى لا تحدها أسوار المادة ، ولا تحيط بها تلك الأصنام التى استعبدته وأخضعته لإرادتها . وما كانت إرادتها إلا أوهاماً فى عقله ، وترهات فى داخله . حبس نفسه فى دائرة ضيقة ، تحول بينه وبين القيام بمهمته فى الكون ، **ألا وهى استعمار فى الأرض ، واستخراج ما فى باطنها من كموز الله ، لينتفع بها فى حياته .**

لا يستطيع الإنسان اليوم أن يدرك مدى هذا التحول الذى أحدثه الإسلام ، إذا لم يعرف ما كان عليه العرب فى الجاهلية فى مجال العقيدة ، فيقول ابن الكلبى فى كتابه المعروف : "الأصنام": كان الذى سلخ بالمكيين إلى عبادة الأوثان والحجارة ، أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم ، تعظيماً للحرم وصبابة بمكة ، فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة..... ثم سلخ ذلك بهم إلى أن عبدوا ما استحلبوا ، ونسوا ما كانوا عليه ، واستبدلوا بدين إبراهيم غيره ، فعبدوا الأوثان ، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم .... وكان لكل أهل دار من مكة صنم فى دارهم يعبدونه ، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع فى منزله أن يتمسح به ، وإذا قدم من سفر كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضاً .... واستمرت العرب فى عبادة الأصنام ، فمنهم من اتخذ بيعاً ، ومنهم من اتخذ صنماً ... ومن لم يقدر على بناء بيت ، نصب حجراً أمام الحرم وأمام غيره مما استحسن ، فطاف به كطوافه بالبيت ، وسموها : " **الأصنام** " ، فكان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار ، فنظر إلى أحسنها فاتخذه رباً ، وجعل ثلاثة أثافى لربه ، وإذا ارتحل تركه ، فإذا نزل منزلاً آخر فعل ذلك . وكانوا ينحرون ويذبحون ويتقربون إليها ، وهم على ذلك عارفون بفضل الكعبة يحجون ويعتمرون إليها . وكان الذين يفعلون من ذلك فى أسفارهم إنما هو للاقتداء منهم بما يفعلون عندها ولصبابة بها ."

جاء الإسلام فأخرج الإنسان من هذا المستنقع الآسن ، وأنقذه من هذا الضياع المهلك ، حيث تعفنت الروح ، وتحجر العقل ، وتبلد الوجدان ، فهداه إلى عقيدة التوحيد التى حررت عقله ، وطهرت روحه من أدران الشرك ، وأرهفت وجدانه ، فتجاوب مع معطياتها ، فكانت قيمها حُلياً له ، ومبادئها لباساً ارتداه ، وأحكامها طريقاً سار على دربه ، وشرائعها نوراً يهتدى به . فأصبح هذا كله نسيجاً اختلط بالفطرة الإنسانية ، فشكلت الإنسان على صورة ، قادته إلى المعرفة ، حيث خطا الخطوة الأولى على طريق بناء الحضارة ، التى أصبحت فيما بعد معلماً من معالم التاريخ البشرى .

العقل

يلعب العقل دوراً رئيسياً فى بناء الحضارة الإنسانية ، ولهذا اهتم به الإسلام اهتماماً بالغاً ، لدرجة أن أول آية نزلت من القرآن الكريم كانت موجهة إليه ، تحثه على العمل فى مجال تحصيل المعرفة ، ألا وهى قوله تعالى : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ [العلق : ١ – ٥] ، فقد تكررت كلمة : " **إقرأ** " ، فى هذه الفقرة الأولى التى نزلت من الوحى على محمد ﷺ مرتين ، كما تكررت كمة : " **علم** " ثلاث مرات ، ثم جاءت الإشارة فيها إلى القلم كأداة يتعلم بها الإنسان .

فهذا يشير إلى الاهتمام البالغ بتكوين عقلية الإنسان ، مما يدل على أن الإسلام يأخذ بيد الإنسان إلى طريق العلم والمعرفة ، ويدفعه دفعاً إلى خوض غمار الحياة منقباً فيها بعقله ، باحثاً فى جنباتها بفكره ، متأملاً فى مظاهرها ليستنطق جمادها ، ويستخرج كنوزها ، ويستكشف أغوارها ، ويزيح الحجب عن أسرارها حتى تلين له ، فيشكلها طبقاً لما أمره الله ﷻ فتتحقق بذلك حكمة الله فى خلق الإنسان على هذه الأرض ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴿٦١﴾ ﴾ [هود : ٦١] ، إذ لا

يتأتى الاستعمار إلا إذا عرف الإنسان كيفيته ، وليس له سبيل إلى ذلك إلا بالعلم والمعرفة .. ولهذا ركز الإسلام على قضية التعليم والتعلم ، واهتم بها اهتماماً بالغاً ، لم يقتصر فيه عنى أول آية نزلت حثت على العلم والقراءة ، بل توالت بعدها – على مدى نزول القرآن الكريم ، وهو ثلاث وعشرون سنة – الآيات تحث على القراءة ، والتفكر ، واستعمال العقل ، والتدبر ، والغوص فى باطن الأشياء ، استنباطاً ، وتفقهاً ، وتعليماً ، فقد ورد فى القرآن الكريم لفظ "**قرأ**" ومشتقاته – بما فيها "**القرآن**" – أكثر من ثمانين مرة ، منها قوله تعالى : ﴿ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [يونس : ٩٤] ، وقوله : ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الإسراء : ١٠٦]

كما جاء الأمر بالتدبر – وهو إعمال الفكر – أربع مرات ، يقول تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء : ٨٢] ، ويقول : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد : ٢٤] ، ويقول : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٦٨] ، ويقول : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص : ٢٩]

وشبيه بها مادة "**التذكر**" وهى أيضاً من أعمال العقل ، وقد جاءت مشتقاتها فى أكثر من مائة موضع فى القرآن الكريم ، منها قوله تعالى : ﴿ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الأنعام : ٨٠] ، وقوله : ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الرعد : ١٩] ، وقوله : ﴿ قَدْ

فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [الأنعام : ١٢٦] ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الزمر : ٢٧]

لقد هز الإسلام بهذه الآيات وأمثالها عقل الإنسان هزاً عنيفاً ، فأيقظه من نومه — حيث كانت الأساطير تسيطر عليه ، والخرافات تكبله بأغلال لا يستطيع منها فكاكاً ، فظل أسير التقاليد الآسنة ، والمعارف البالية ، والأفكار البدائية دهوراً طويلة — وانتزعنه من حالة الاستسلام والانقياد لما وجد عليه آباءه من معارف تعوقه عن التقدم ، وتمنعه من الانطلاق إلى آفاق العالم الواسع ، الذى يدعوه إلى إعمال العقل ليكشف أسراره ، ويستمتع بما أودعه الله فيه من خيرات .

كانت هذه الآيات إيذاناً للإنسان بأن عهد الاستسلام إلى المسلمات البالية قد انتهى ، فلا مكان للسكون إلى الواقع الذى صنعته الأساطير والأوهام ، فلا ينبغى للإنسان أن يرضى بما توارثه عن الآباء والأجداد ، دون إعمال الفكر فيه ، حتى يميز الخبيث من الطيب ، ويتبين بعقله وفكره النافع من الضار ، فهو دائم البحث عن الكمال ، الذى يليق بمعطيات الدين الجديد ، فكان هذا إيذاناً بميلاد حضارة جديدة .

كشف أسرار الكون

يظن كثير ممن لا علم لهم ولا دراية بفقه الإسلام وأحكامه ، أن العلم الذى حث الإسلام المسلمين على تعلمه والتفقه فيه ، إنما هو العلم الدينى ، أى الأحكام الشرعية ، فما جاء فى القرآن الكريم من ترغيب الناس فى طلب العلم ، أو ما يفيد رفع درجات العلماء على غيرهم من الناس ، إنما المقصود منه التفقه فى مسائل الدين وأحكامه فقط ، فمن تعلمها وتفقه فيها رفعه الله درجات على غيره ممن لم يبذل جهداً لمعرفتها : والوقوف على مسائلها . ولا يستقيم هذا الفهم مع ما طلبه الإسلام من المسلم فى مجال تحصيل المعرفة ، فبالإضافة إلى ما فرضه الله على المسلم من معرفة الأحكام الشرعية حتى يستقيم نظام حياته ، ويتطابق سلوكه مع ما أمر الله فى كتابه العزيز ، حثه أيضاً على بذل الجهد لاكتشاف أسرار

الكون حوله ، بل هداه إلى اتباع أسلوب علمى لم تعرفه الأوساط العلمية إلا فى العصر الحديث ، فقد طلب منه أن يبحث عن أسباب الظواهر ، وينقب فى أحداث التاريخ ليقف على نواميس الأحداث وقوانينها التى تضبطها ، كما علمه استخدام الجانب الحسى فى استكشاف الروابط بين الظواهر المحيطة به .

فمن يتمعن فى كتاب الله يجده مصباحاً يقود عقل الإنسان إلى بذل الجهد ، كى يتمكن من تصور تركيبة الكون بكواكبها وأفلاكها وظواهرها الطبيعية المتغيرة ، وفهم علاقة الإنسان بها ، ومعنى الحياة والوجود ، حتى يستطيع أن يضع يده على الخيط الذى يربط الظواهر والأشياء بعضها ببعض ، وهذا ما يعرف فى العلم الحديث بقانون السببية ، علمه القرآن الكريم للإنسان المسلم من قبل أن يتجه إليه العالم الغربى بقرون عديدة ، بل إن الفضل فى اهتداء العقل الغربى إليه يرجع إلى مناهج المسلمين الأوائل فى بحوثهم العلمية .

ففى القرآن الكريم آيات كثيرة جداً تنادى المسلمين مراراً وتكراراً بأن ينهجوا هذا النهج فى البحث عن أسرار الوجود ، حتى يتأكدوا عن طريق البحث العلمى بأن الله هو خالق الكون ومدبره ، فهو قادر على كل شيء ، ومحيط بما خلق ، وعالم بما هو كائن وما سيكون . ولا يتسع المقام هنا لذكر كل ما ورد فى هذا الصدد ، ولذا سنكتفى بعرض بعض الآيات التى تعلم المسلم قانوناً لم يعرفه قبل دخوله فى الإسلام ، ألا وهو قانون السببية ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران : ١٩٠ - ١٩١] ، ويقول : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا

مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [البقرة : ١٦٤] ، فلم يخلق الله الكون وما فيه بدون سبب ، أو بدون هدف ، يقول تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [المؤمنون : ١١٥] ، ويقول : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأنبياء : ١٦] . وعليه فيجب على الإنسان أن يبحث عن سر الخلق ليتوصل بذلك إلى الإيمان بالله ، وليتعود على هذا الأسلوب العلمى فى جميع ما يتناوله من أبحاث فى حياته ، حتى تكون أعماله مؤسسة على أسباب ، وتستهدف غايات لها فى التركيبة الاجتماعية مجال تؤثر فيه ، وبذلك يكون قادراً على رؤية الظواهر المحيطة به ، مدركاً للعلائق والارتباطات التى تصلها ببعضها .

ومما لاشك فيه أن العقل الذى ينهج هذا النهج على أساس من الإيمان بالله ، يكون قادراً على التعبير عن إبداع الخالق فى جميع المجالات ، ففى المجال النظرى ينتقل من الإحساس بالجزئيات المادية البسيطة ، إلى إدراك الكليات المركبة ، والعلاقات التى تربط أجزاءها ببعض ، والتفاعلات التى تحدث بينها على نحو لا يؤدى إلى الخلل فى النظام الكونى ، مما يدل على وجود خالق يرعى هذا التداخل والتشابك بين مظاهر الطبيعة ، يقول تعالى :

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس : ٣٧ - ٤٠]

وفى المجال العملى تتحول عقلية المسلم من النظرة البسيطة المفككة ، التى تعاين الأشياء والظواهر كما لو كانت منقطعة معزولة منفصلاً بعضها عن بعض ، إلى الرؤية الكلية

للأشياء ، الباحثة عن الأسباب والمسببات ، والمنقبة عن ارتباط الظواهر بعضها ببعض ، فتجمع ، وتلم ، وتقارن ، وتختزل ، وتركب لتصل إلى ما تريده من حقائق ، وهذا هو المنهج العلمى الذى على أساسه تقوم الحضارة ، وبواسطته يتمكن الإنسان من تشكيل معطياته على نحو يكون فيه سعادته فى الدنيا ، وفلاحه فى الآخرة . وهذا هو ما يريده الإسلام من المسلم : أن يعمل لدنياه كأنه يعيش أبداً ، وأن يعمل لآخرته كأنه يموت غداً ، يقول تعالى : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [القصص : ٧٧]

نواميس التاريخ

نظر الإنسان فى العصور الأولى إلى دراسة التاريخ ورواياته من زاوية إشباع رغبة فى داخله ، تحركه إلى تعقب أخبار الناس ، وتتبع سيرهم . ولما كان الجانب البطولى– وكذلك أخبار المعارك – يستهوى رغبة العديد من الناس ، فقد غلب الطابع الأسطورى على رواية التاريخ فى العصور القديمة ، وامتد تأثير هذا الجانب على جميع أنشطة الحياة ، حتى الكتب الدينية ، فقد امتلأت صفحاتها بغرائب الأشياء ، وازدحمت سطورها بخيالات قد لا تمت إلى الواقع بصلة . ومن المعروف أن هذه النصوص المغرقة فى الأوهام والتصورات اللامعقولة ، لا تفيد الإنسان من الناحية العملية فى مسيرته الحضارية ، فهى لا تقدم له إرشاداً ولا توجيهاً ، لأنها لا ترتكز على حقائق ثابتة ، وليس فى الإمكان استخلاص نظرية من أحداثها ، يمكن أن تتخذ قاعدة لتوجيه النشاط الإنسانى ، أو معرفة ما يمكن أن يحدث مستقبلاً ، اعتماداً على القياس بالمتشابهات فى أحداث التاريخ .

ولهذا فقدت الروايات التاريخية أهميتها فى مجال النشاط الإنسانى الخلاق ، إذ لم يكن لها تأثير فى دفع عجلة التقدم ، ولا فاعلية فى بناء الحضارة الإنسانية ، وضعف الاعتماد عليها فى تصحيح مسيرة المجتمعات البشرية مادامت تدور حول الأساطير ، وتجري فى ساحات

المعارك والبطولات . فإذا انفصلت عن هذين المجالين انحدرت فى وادى السرد التاريخى ، الذى لا يعرف الربط بين المتشابهات ، لاستخلاص ما قد يفيد فى تعميق ما يؤدى إلى الرفعة والعزة ، ويفضى إلى ما من شأنه أن يقوى روابط المجتمع ، ويشد أزر الدول ، أو إدراك ما ينذر بالخطر ، فيتعلم المجتمع من أحداث السابقين ما يرشده إلى تجنب مواطن الزلل ، والبعد عما يؤدى إلى الضعف والانهيار .

ظلت كتابة التاريخ ودراسته تتحرك بين المجتمعات البشرية دون هدف بناء ، أو غاية مؤثرة فى مجال الأحداث ، إذ كان تناول الإنسان له من جانب إشباع رغبة عاطفية عنده ، ألا وهى ولوعه بتتبع سير الناس ، والجرى وراء استحضار صور الأبطال وتصور البطولات ، إلى أن ظهر الإسلام فبَيَّن للعقل البشرى أن حركة التاريخ ليست عشوائية ، فهى لا تسير بغير هدف ، بل تتحكم فيها سنن ونواميس كتلك التى تحكم الكون والعالم والحياة والأشياء . فأحداث التاريخ ووقائعه لا تخلق بالصدفة ، ولا تسير بالدفع الذاتى ، وإنما لها شروط خاصة تتحكم فيها ، فتوجهها صوب هذا المصير أو ذاك ، بمعنى أن هناك قانوناً يحكم التاريخ ، فمن يتأمل الأحداث ، ويبحث عن أسبابها ، ويغوص بالدراسة والبحث فيما يحركها ويوجهها ، يستطيع الوصول إلى الناموس الذى تخضع له الحركة التاريخية فى سيرها وتطورها من حال إلى حال .

وجه المنهج الجديد الذى طرحه القرآن الكريم عقل الإنسان إلى أن السنن والنواميس التى تسير حركة التاريخ فى مجالها ، بحيث لا تنحرف عنه ، ولا تخرج منه ، وتدفعها عبر مسالكها المحددة ، بحيث لا تتجاوزها أو تتخطاها ، إنما هى قائمة على معطيات بيئية ثابتة ، ولها ارتباطات وعلاقات بالعالم الذى يتحرك فيه الإنسان ، فلا يمكن أن تنفصل دراسة التاريخ عن الإنسان : فطرة وغرائز ، وأخلاقاً وفكراً ، وعواطف ، ووجداناً . كذلك لا ينعزل التاريخ عن الوضع الاقتصادى والاجتماعى ، بل إن المعطيات الجغرافية لها دور كبير فى تكوينه وتشكيله .

ولم يقتصر القرآن الكريم على توجيه العقل البشري إلى مراعاة ارتباط هذه الظواهر بالتاريخ فحسب ، بل أكد أكثر من مرة أن التأثير بينها عملية دائمة ومستمرة ، فالتفاعل

العضوى موجود دائماً ، ولذلك فمسئولية الإنسان فيما يحدث مؤكدة ، فما الأحداث إلا نتيجة لنشاط ما ركب فيه من قوى عقلية وروحية . فإذا ما أدرك الإنسان هذه المسئولية ، فتحرك فى العالم وفق ما جاء به الأنبياء والرسل ، سارت الحياة البشرية فى طريق التقدم والرقى ، دون أن تصاب بهزات تعوق سيرها ، أو تتخبط فى متاهات الانحرف بها عن الطريق السوى . أما إذا غفل الإنسان عن هذه المسئولية ، فلن يحدث للجماعة البشرية إلا التدهور ، والتفتت والانهيار ، يقول الله تعالى : ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأحزاب : ٦٢] ، ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [فاطر: ٤٣] ، ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٧] ، ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ ﴾ [الكهف : ٥٥] ، ﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفتح:٢٢ – ٢٣]

عبرة الماضى

قدم القرآن الكريم منهجاً متكاملاً فى دراسة التاريخ ، إذ نقل الإنسان من مرحلة الاهتمام بالأساطير والبطولات التاريخية إلى الاهتمام بأخلاقيات الأمم والشعوب ، والربط بينها وبين ما يحدث لها من محن وكوارث ، ومراعاة ما نحرزه من تقدم وازدهار مع البحث عن أسباب هذا التقدم ، كي تتعلم الشعوب من الأمم السابقة ، فتتجنب ما يؤدى بها إلى الضعف والانهيار ، وتحرص على ما يساعدها على بناء مجدها ، ويدفعها إلى مدارج الرقى

والكمال ، يقول تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ
﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن
يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ
النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ
﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [آل عمران : ١٣٧ -
١٤١] ، ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ
نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأنعام :
٣٤] ، ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ اللَّهُ
عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [محمد : ١٠] ، ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ
الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ۗ ﴿٦﴾ ﴾ [الرعد : ٦] ، ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ
لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [السجدة : ٢٦]

وبهذا أصبح للتاريخ أهمية إيجابية ، فصار ميداناً للدراسة والاختبار ، بحيث تستخلص منه القيم التى لها دور رئيسى فى حياة الأمم والشعوب ، ويتعرف على القوانين التى على أساسها يستطيع الباحثون وضع برامج للنشاط الإنسانى ، ليسير على هداها فى حاضره ، ولا يهملها عند التخطيط لمستقبله ، وبذلك أصبحت حركة الجماعات البشرية محل دراسة و تمحيص فى جميع مجالات الفكر الإنسانى ، فاهتم بها الفلاسفة ، وعلماء الاجتماع ، والمهتمون بالاقتصاد بكل فروع أنشطته ، ورجال الدين على اختلاف مذاهبهم واتجاهاتهم ،

حتى صار الاهتمام بالتاريخ وأحداثه معلماً من معالم الحضارة الإنسانية ، فإذا ادعى المتعصبون للحضارة الغربية بأن هذا المنهج فى التعامل مع التاريخ البشرى هو ثمرة من ثمار التقدم الأوربى ، فإن نصوص القرآن الكريم تكذبهم ، إذ هى تعلن أنها وجهت الإنسان قبل أكثر من أربعة عشر قرناً إلى هذا المنهج ، وعلمته كيفية الاستفادة من أحداث السابقين ، وذلك بدعوته إلى النظر فيما وقع فى القرون الأولى من كوارث اجتماعية ، والبحث عن أسبابها وعللها ، والربط والمقارنة بين ما يحدث فى العصور المختلفة ، للتأكد من علل وأسباب ما يعترى المجتمعات من ضعف وانهيار ، حتى يتعلم كيفية حماية نفسه ، فلا يلقى مجتمعه مثل هذا المصيرّ .

إن منهج القرآن الكريم فى النظرة إلى التاريخ معلم من معالم الحضارة ، دعا إليه الإسلام منذ أكثر من أربعة عشر قرناً ، أى قبل أن يعرف من يتهم الإسلام اليوم بالتخلف شيئاً عن مفهوم الحضارة ، فلم يكن لديه آنذاك شيء يؤهله للتفكير ، فضلاً عن الإسهام فى تكوينها وتشكيلها . بل إن المسلمين هم الذين علموهم هذا المنهج ؛ فقد كان لأبحاث ابن خلدون فى هذا المجال أثر كبير فى توجيه الأوربيين إلى دراسة التاريخ بالأسلوب المنهجى ، فتعلموا منه أن الظواهر داخل المجتمعات البشرية لها أسباب وعلل ، وأن لكلٍّ مسبباً لا يتخلف ، فالظواهر المتشابهة تنتج عن أسباب تكاد تكون واحدة . كما أخذوا عنه مبدأ دورات التاريخ الحضارى ..... وغير ذلك مما تعلمه من الأمثلة والشواهد التاريخية التى وردت فى القرآن الكريم .

كان لهذا المنهج أثر بالغ فى بناء الحضارة الإسلامية ، فلو حافظ المسلمون عليه لاستمر عطاؤهم فى جميع ميادين الحضارة الإنسانية ، ولكنهم غفلوا عنه فنسوه ، بينما أخذه منهم غيرهم فبنوا عليه حضارة مادية ، ليس فيها روح ولا حياة ، فهم اليوم يهددون بواسطتها المجتمع البشرى بالفناء والدمار . فلو أدرك المسلمون ما اقترفوه من إثم ، وأرادوا أن يكفروا عن سيئاتهم ، فيجب عليهم أن يستعيدوا مكانتهم فى العالم ، وذلك بأن يطبقوا ما جاء فى القرآن الكريم من مناهج فى جميع مجالات الحياة ، حتى تكون لهم السيطرة على مجريات الأمور فى المجتمع الدولى .

obeikandi.com

العلم فريضة

شاع بين الناس أن الدين محصور فى المجال الأخلاقى ، فهو لا يهتم إلا بما يعود على الروح من : نقاء ، وصفاء ، تزكيةً وتطهيراً ، وما عدا ذلك فقد أعرض عنه ، وتركه لقوى أخرى ، تحركه وتتحكم فيه ، فتنظمه ، وتضع له من القواعد ما تراه صالحاً له ، ولهذا سيطر على الغالبية العظمى أن مفهوم الدين ، هو : العبادات التقليدية المحددة بنظام معين ، وعلى هيئة خاصة ، يقيمها الإنسان من آن لآخر ، حسب ما هو مفروض عليه ، ثم ينطلق إلى آفاق الحياة التى لا مكان فيها للدين . كما ظن بعض من استهوتهم الحياة الدنيا بزينتها وزخرفها ، وسيطرت الحياة المادية على جميع حواسهم ، أن الدين يعوق عن التقدم ، ويعترض طريق الانطلاق إلى مجال الإنجازات الحضارية ، فهو يناصب العلم العداء ، ويحرم على الإنسان البحث والتنقيب ، ويقيم الحواجز بين الإنسان وبين استكشاف علل الظواهر الكونية ، وأسرار الطبيعة الإنسانية ، ومن ثم فقد نسبوا إليه كل مظاهر التخلف التى أصابت المجتمعات الإنسانية ، فشلت عقل الإنسان ، وأعجزته عن الابتكار والاختراع .

و لئن كان الحق حليف بعض هذه الدعاوى فى العديد من الأديان المنتشرة فى الأرض ، فليس لها فى الإسلام نصيب من الصحة ؛ ذلك أن العلم لم يحظ باهتمام فى أى دين ، أو فى أى نظام من النظم التى سادت فى المجتمعات البشرية مثل الاهتمام الذى حظى به فى الإسلام ، فقد حث على طلب العلم وتعليمه ، يقول رسول الله ﷺ : " **طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة** " ، ويقول : " **أطلبوا العلم ولو بالصين** " ، ويقول : " **الحكمة ضالة المؤمن ، أنى وجدها فهو أحق بها** " ثم يبين الإسلام أن العلماء لهم المكانة والفضل ، فيقدمون على غيرهم ممن لم يدفعهم إيمانهم إلى التزود بالعلم والمعرفة ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩] ، وما ذاك إلا ليدفع المسلمين دفعاً إلى بذل أقصى ما فى وسعهم فى مجال العلم ، كى ينعموا بالمركز الاجتماعى بين أقرانهم ، ويفوزوا برضاء الله ، فينالوا ثوابه يوم القيامة .

وليس المقصود بالعلم الذى يتحدث عنه القرآن الكريم هو علم الدين فقط ، كما يفهم بعض الناس ، بل هو العلم بوجه عام ، سواء كان متعلقاً بالأحكام الدينية ، أو يتصل بما فى الوجود كله ، سمائه وأرضه وفضائه ، إنسانه ونباته وحيوانه وجماده ، فقد دعا القرآن الكريم الإنسان إلى النظر فى حقيقة وجوده ، والبحث فيها ليقف على مدى ارتباطه بما حوله من مظاهر الكون ، ووجهه إلى استعمال كل ما بين يديه من طاقات فى مجال البحث والنظر ، والمعرفة والتجريب الذى يوصله إلى كشف ما فى نفسه من أسرار ومعرفة ما حوله من ظواهر ، فقال له : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء : ٣٦] ، فوضع بذلك أولى لبنات البحث ، وهى التأمل والنظر بسمعه ، وبصره ، وفكره ، وهذه هى أدوات ما يسمونه فى العصر الحديث : " البحث الحسى " أى القائم على التجربة الحسية . فإذا كان هذا هو مفتاح التقدم والرقى ، والدرجة الأولى التى خطاها العلم فى العصر الحديث على طريق الحضارة التى وصل إليها الإنسان اليوم ، فيكفى الإسلام فخراً أن وجه الإنسان إليها قبل ذلك بقرون عدة ، واستعملها المسلمون الأوائل فى بحوثهم ، فبنوا عليها حضارة لازالت معالمها واضحة للدارسين للفكر الإنسانى .

و لم يكتف الإسلام فى هذا المجال بتوجيه نظر المسلم إلى استعمال حواسه فى الكشف عما حوله ، بل بين له الموضوعات الرئيسية التى ينبغى أن يتخذها موضوعاً لبحثه ، فأمره بأن يمعن النظر فيما حوله ، ويبحث عن مكنون الظواهر وتطوراتها بالأسلوب التجريبى ، فأشار إلى البحث فى عملية تكوين طعامه ، فقال تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ ﴾ [عبس : ٢٤ - ٣١] ، وقال : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ

فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩) ﴾ [الأنعام : ٩٩]

ثم دعاه إلى النظر فى كيفية خلقه هو ، فقال تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) ﴾ [الطارق : ٥ – ٧] ، وقال : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾ [الذاريات : ٢١] ، وقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) ﴾ [الأنعام : ٩٨]

فهذه توجيهات تدعو الإنسان إلى البحث فى نفسه وفى تكوين طعامه . ومما لاشك فيه أن الدين الذى يحث أتباعه على ولوج هذا الميدان ، لا يمكن أن ينسب إليه التخلف فى مجال الحضارة الإنسانية ، ولا يعقل أن يكون عدواً للعلم والبحث والتنقيب . وإذا ما سمعنا بعض الأصوات تردد أن المسلمين تخلفوا بسبب تمسكهم بدينهم ، فلنقذف فى أسماعهم بهذه النصوص التى تدحض دعواهم ، لعلهم يعودون إلى صوابهم ، فيميزون بين الإسلام وبين غيره من الأديان .

البحث عن الحقيقة

اهتم الإسلام بطرق إثبات الحقائق هتماماً ليس له نظير فى أى دين على وجه الأرض ، فتحدث القرآن الكريم عن أهم مدارك الإنسان حديثاً يلفت نظر الإنسان إلى الاهتمام بها ، ويدعوه إلى تحمل المسئولية فى التوصل إلى حقائق الأشياء عن طريقها ، ومما كثر الحديث عنه فى هذا المجال : النظر ، والسمع ، والإدراك ، فقد وردت فى القرآن الكريم مجتمعة — بكيفيات ومشتقات مختلفة ، تارة : سمع وبصر ، وتارة : سمع وعقل ، وأخرى : سمع وبصر

وعقل – أكثر من عشرين مرة ، وجاءت منفردة فى أكثر من مائة آية ، وفى كل مرة يُدْعَى الإنسان إلى التأمل والتفكر ، ومحاولة إدراك وفهم ما يدور حوله من مظاهر الكون ، وتغييراته وتركيباته ، فتارة تدعوه إلى النظر فى الملكوت ، يقول تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [الأعراف : ١٨٥] ، ويقول : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ ﴾ [ق : ٦]

وتارة يدعوه إلى النظر فى الأرض والطبيعة ، يقول تعالى : ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴿٥٠﴾ ﴾ [الروم : ٥٠] ، وأخرى إلى الحيوان ، ليقف على أسرار قدرة الله فيه ، يقول تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ ﴾ [الغاشية : ١٧] . ولم يهمل الإسلام دعوة الإنسان إلى دراسة الأحداث التاريخية ، ليستخلص منها ما يعود على حاضره بالفائدة ، وينفعه فى بناء مستقبله على نحو يبعده عن الوقوع فيما وقع فيه الأولون من كوارث ومتاعب ، يقول تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [غافر: ٨٢] ، ويقول : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [آل عمران : ١٣٧] . بل إنه دعاه إلى تفهم ما أراده الله تعالى من فوارق اجتماعية . فقال تعالى : ﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ ﴿٢١﴾ ﴾ [الإسراء : ٢١] . وقد وصل دفع الإنسان إلى النظر فيما يحيط به إلى أقصى مداه ، حيث أمره بالبحث فى مجال استكشاف مبدأ الحياة ، وكيفية نموها

وارتقائها ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾
[العنكبوت : ٢٠]

وعليه فمن يطلع على هذا لابد أن يسلم بأن القرآن الكريم يدعو إلى البحث فى جميع المجالات ، فلا يسمع لدعاوى الهجوم على الإسلام التى تحاول تصويره على أنه عدو للحضارة والتقدم .

فإذا واصلنا البحث فى آيات القرآن الكريم عن المزيد من الإشارات التى تحث المسلم على مواصلة البحث بكل ما لديه من إمكانات ، لوجدنا أن هناك آيات عديدة تحدثت عن ضرورة استعمال الحاسة الأخرى فى مجال البحث والنظر ، فقد دعا القرآن الكريم المسلمين إل استعمال **" البصائر "** ، كى تتحمل مسئوليتها فى تنسيق المدركات ، وتمحيصها ، وتوازنها من أجل الوصول إلى الحق الذى تقوم عليه وحده نواميس الكون والخليقة ، يقول تعالى :﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ۚ (١٠٤) ﴾ [الأنعام : ١٠٤] ، وبين أن أولئك الذين لا يستعملون هذه الحواس لمعرفة ما يضرهم وما ينفعهم ، ىن يفلحوا فى هذه الحياة ، وسيكون جزاؤهم أليماً يوم القيامة ، يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾
[الأعراف : ١٧٩]

فالإنسان مسئول مسئولية كاملة عما أودعه الله فيه من حواس ، فيجب أن يستعملها فيما خلقت له ، كما أنه يحمل تبعة البحث والتمحيص فيما حوله ، وتلك هى المزية التى تميز بها الإنسان عن غيره من الحيوانات ، يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) ﴾ [الإنسان : ٢] . ويؤكد القرآن الكريم فى كثير من آياته على أن استعمال السمع والبصر والفؤاد فى تحصيل المعرفة يعطى للحياة الإنسانية قيمتها وتفردها ، فلو حرك الإنسان هذه القوى والطاقات التى أودعها الله

فيه ، لفتحت أمامه نوافذ المعرفة على مصراعيها ، ولو استغل قدراته فى هذا المجال استغلالاً منظماً ، فسوف يصل إلى قمة الانتصار العلمى فى جميع المجالات ، وعندئذ سيكون سيد العالمين ، وخليفة الله فى الأرض ، إذ وصوله إلى المعرفة سيمكنه من استغلال كل ما فى الأرض ، فيسخره لنفسه ، وفى الوقت نفسه يدرك قدرة العليم الخبير ، فلا يستخدم ما أفاء الله عليه من معلومات فيما يهدد الأمن والسلام فى الأرض . أما إذا جمد طاقته ، وسد نوافذ المعرفة ، فأحكم إغلاقها ، فسوف يحيا حياة دنيا ، أقرب إلى حياة الأنعام منها إلى ما ينبغى أن تكون عليه الحياة البشرية ، وقد وصف الله أمثال هؤلاء بالأنعام ، فقال تعالى : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان : ٤٤]

لقد كان لتوجيه القرآن الكريم الإنسان إلى استعمال السمع والبصر والفؤاد فى بحثه فيما حوله للوصول إلى حقيقة الأشياء وكنه الوجود إشارة إلى منهج فى البحث العلمى ، لم يتوصل إليه الإنسان إلا فى العصر الحديث ، ذلك المنهج هو : استعمال التجارب الحسية فى البحث العلمى ، أى الاهتداء إلى المنهج التجريبى . وهو مفخرة من مفاخر أنصار الحضارة الحديثة . فلئن كانوا يفخرون بأن المنهج التجريبى من الدعائم الرئيسية التى قامت عليها الحضارة الحديثة ، فحق على كل مسلم أن يتيه فخراً واعتزازاً ، لأن القرآن الكريم أشار إلى هذا المنهج قبل أكثر من أربعة عشر قرناً ، بل إنه حث الإنسان على استعماله فى بحثه . وفى ذلك دليل على أن الإسلام يدعو الناس إلى الأخذ بأسباب التقدم والرقى البشرى .

دعوة العقل

فضل الله الإنسان على سائر الكائنات الحية ، ومن أبرز مظاهر التكريم منحه قوة التفكير ، ذلك أنها من الخصائص التى تميز بها الإنسان عن سائر الكائنات المخلوقة على سطح هذه الأرض ، فبها استطاع أن يتغلب على ما حوله ويسخره له ، مهما كانت قوة جسمه وصلابة عضلاته ، إذ بواسطة العقل استطاع الإنسان أن يخضع كل حى له ،

ويسخر كل ما فى الطبيعة لخدمته ، فهو المفتاح الذى منحه الله لبنى آدم ليفتحوا به آفاق المجهول ، والمصباح الذى أعطاه الله للإنسان لينير به طريق الحياة ، والآلة التى منحها الله لمن فضله من الكائنات الحية – وهو الإنسان – ليستخدمها فى الكشف عن أسرار الطبيعة ، والقوة المدركة التى وهبها الله للإنسان ليصل بها إلى إدراك الإبداع فى الكون ، والدقة فى الخلق ، فيعرف بذلك مَنْ أبدع فأحسن التكوين ، وخلق كل شيء فى أحسن تقويم .

ولهذا جاءت آيات كثيرة فى القرآن الكريم تحث الإنسان على التفكير فى نفسه ، وفى كيفية خلقه ، وتوضح له أن وظيفة العقل هى التفكير ، الذى يقود صاحبه إلى الهداية ، وإلى معرفة الواحد القهار ، وإلى الوقوف على أسرار ما حوله من مظاهر الطبيعة . وتنوع التعبير عن هذه القوة المدركة فى الإنسان ، فجاء الحديث عنها مرة : بالتفكر ، وتارة : بالعقل ، وأخرى : بالتفقه . فلو تتبعنا الآيات التى تحدثت عنها بكلمة : " التفكر" ومشتقاتها اللغوية ، لوجدنا أن القرآن الكريم ذكر هذه المادة فى سبع عشرة آية ، منها ما يحث على التفكير فى آيات الله ، كقوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ ﴾ [البقرة : ٢١٩] ، وما يدعو إلى التفكير فى النفس ، كقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ ﴿٨﴾ ﴾ [الروم : ٨] ، وما يوجه الإنسان إلى التفكير فى خلق السموات والأرض ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران : ١٩٠ – ١٩١] ، وفى مظاهر الحياة حوله ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا

وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يونس : ٢٤]

كما أن منها ما ينفى المساواة بين من يعطل هذه القوة ، ومن يستخدمها فيما خلقت له ، يقول تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ [الزمر: ٩] ، كذلك كرر القرآن الكريم كلمة : " **العقل** " ومشتقاتها اللغوية ، لحث الإنسان على عدم تعطيل ما أنعم الله به عليه ، فجاءت فى لأكثر من أربعين آية ، منها قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [البقرة : ٧٣] ، وقوله : ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [الأنعام : ١٥١] ، وقوله : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [البقرة : ١٦٤] .

و " **التعقل** " و " **التفكر** " : وظيفتان للقوة المدركة فى الإنسان ، لا يجوز له أن يهملهما ، وإلا كان معطلاً لما يميزه عن الحيوان ، إذ ليس هناك فرق حيوى بينهما سوى هذه القوة ، فإذا لم تمارس فيما خلقت له أصبح الإنسان كالأنعام ، يقول تعالى : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ

سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان : ٤٤] ، ولم يقتصر القرآن الكريم على دعوة الإنسان إلى التفكير في نفسه وفيما حوله وتعقله ، بل خطا خطوة أبعد منهما ، فحثه على **" التفقه "** وهو أبعد مدى من التفكير ، إذ من يصل إليه يكون أكثر وعياً لما يحيط به ، وأعمق إدراكاً لأبعاد وجوده وروابط الكائنات الحية حوله ، كما يجعله منفتح البصيرة دائماً ، وعلى استعداد للحوار البناء ، الذي يؤدى إلى نتائج تعود بالنفع عليه في جميع مجالات حياته ، ولذا وصف الله بها كل من يصل بعقله إلى إدراك أغوار ما يعرض عليه ، يقول تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الأنعام : ٩٨] ، ويقول : ﴿ قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنعام : ٦٥] ، بل ذم من لم يفعل ذلك وتوعده بسوء المصير ، يقول تعالى : ﴿ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ﴿٧٨﴾ ﴾ [النساء : ٧٨] ، ويقول : ﴿ وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا ﴿١٧٩﴾ ﴾ [الأعراف : ١٧٩]

فهذه جوانب ثلاثة للقوى المدركة في الإنسان ، ينبغي عليه دينياً ألا تفارقه ولا يفارقها ، وإلا كان مقصراً في مهمته في هذه الحياة . ولاشك أن مثل هذا التقصير يعوق تقدمه ، فيودى به في أودية التخلف والانحطاط الذى لا يرضاه الله له ، بل سوف يحاسبه يوم القيامة على إهماله لوظيفة العقل مما أودى به إلى قاع التخلف ، حيث يتحكم فيه أعداؤه الثلاثة : **الجهل والفقر والمرض** . وهكذا تبدو أهمية الإسلام وفاعليته في المجتمعات التي تتمسك به ، وتتخذ نهجه الإلهي لها طريقاً في جميع مجالات حياتها .

ذم التقليد

أباح الله للإنسان أن يستعمل فكره فى جميع المجالات التى تحيط به ، بل دعاه إلى هذا مرارً وتكراراً ، فلو أردنا استعراض الآيات التى ورد فيها ذكر الفكر وضرورة استعماله للوصول إلى كنه الظواهر المحيطة بالإنسان ، لطال بنا العرض طولاً قد يؤدى إلى تشعب الموضوع تشعباً يستغرق كل الخطوط الرئيسية التى رسمها الله للإنسان فى محكم كتابه ، وفى ذلك ما يدل على أن محور الدين وأساسه استعمال الفكر ، إذ به يفهم الإنسان الوحى ، ويستنبط الأحكام ، بل يقيس على ما ورد للوصول إلى حكم لما جد من أحداث . بل إنه استحث العقل ليباشر مهمته فى الوصول بنفسه إلى معرفة الواحد القهار ، فعرض عليه قضايا فكرية ليكون التفكير فيها طريقاً موصلاً إلى الإيمان بوحدانية الله ، منها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [آل عمران : ١٩٠] ، وقوله : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الطور: ٣٥ – ٣٦] ، وقوله : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأنبياء : ٢٢] ، وقوله : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنبياء : ٢٤] ، وقوله : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴿٩١﴾ ﴾ [المؤمنون : ٩١]

تدور حياة الإنسان كلها على أساس الفكر ، إذ لايوجد إنسان سوى بدون فكر ، لأن الفكر عصب حياة الإنسان ومدار نشاطه ، ولهذا منح الإسلام للإنسان حرية فى الفكر لم يمنحها دين من الأديان ، ولا استطاع مذهب من المذاهب الإنسانية أن يصل إليها ؛ إذ لم يجبره على اعتناق عقيدة التوحيد ، كما لم يقبل منه التقليد فيها ، بل ذم التقليد الذى يبعد

الإنسان عن ممارسة ما به تتحقق ذاته ، ألا وهو الاعتقاد بعد تفكير واقتناع بما يعرض عليه من قضايا ، يقول تعالى فى ذم الذين ينساقون وراء آبائهم وكبرائهم دون محاولة التفكير فيما يساقون إليه وفهم حقيقته : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأنبياء : ٥١ – ٥٤] ، ويقول : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾ [المائدة : ٧٧] . بل وصل الأمر فى ذم التقليد إلى أن يصور القرآن الكريم مشهد عتاب ، سوف يحدث يوم القيامة بين المقَلّدين والمقلَّدين ، فيقول تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [سبأ : ٣١ – ٣٢]

فإذا كان الإسلام قد ذم التقليد فيما يتعلق بالجانب الروحى فى الإنسان ، ومجال التفكير فيه محدود ، إذ لا ينبغى أن يخرج عن الإطار العام للعقيدة ، فمن باب أولى أن يذم التقليد ، أو التحجر على صيغ موروثة ، فيما يتعلق بشئون الحياة الدنيوية ، السريعة التغيير والتطور ، فهو يدفع المسلم دفعاً إلى البحث فى الظواهر الكونية المحيطة به سعياً وراء تحسين مستوى الحياة فى المجتمع الإسلامى .

obeikandi.com

فهم المسلمون الأوائل هذه الروح الإسلامية ، وتشبعت روحهم بها ، فقادوا حركة عقلية فى صدر الإسلام ، صالت وجالت فى جميع ميادين الحياة ، فنهلت من كل ما حولها ما ينفعها فى تكوين شخصيتها المتميزة ، وأعطت لمن حولها ما أفاء الله به عليها من معارف وعلوم ، فلم تتقوقع داخل نفسها ، بل انفتحت على ما وراء حدودها الجغرافية والفكرية . ولم تتحجر أمام ما واجهها من أفكار ونظريات ، بل تعاملت معها بأسلوب علمى بناء ، أخذت منها ما يصلح المجتمع الإنسانى ، وعدلت ما يمكن تعديله ، حتى يستقيم مع روحها وتكوينها ، وزادت عليه من خبرتها وتجاربها ما يدفع عجلة الحياة الإنسانية إلى التقدم والرقى ، فشيدت بذلك حضارة إسلامية ، وضحت معالمها فى جميع أنشطة الحياة الإنسانية ، وتمركزت مظاهرها فى كل أرجاء المعمورة ، وكثر عطاؤها لكل الشعوب ، فنهل منها الراغبون ، فكانت بذلك أساساً لكل النهضات التى جاءت بعد الإسلام ، وبذرة لكل ثمار الحضارات الإنسانية التى ظهرت فى القرون التالية ، غير أن الإنسان تنكر لجانبها الروحى ، فصار إنتاجه الحضارى المعاصر مادياً لا حياة فيه ، استغلالياً لا رحمة معه ، أنانياً يجرى وراء ما يدمر الغير ، ولن يقدر على إحياء هذه الروح فى الحضارة المعاصرة إلا الإسلام .

ضرورة الحوار

خرج المسلمون من الجزيرة العربية يحملون كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وحولهما ما أنتجته عقول المسلمين الذين تربوا فى مدرسة النبوة ، فدعوا أهل البلاد التى فتحها الله عليهم إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، فلم يمارسوا معهم إرهاباً فكرياً ، ولا ضغطاً نفسياً ، كما لم يستعملوا معهم القوة لحملهم على اعتناق الإسلام ، بل عرضوه عليهم ، ودخلوا فى حوار فكرى معهم ، كان طرفاه : مبادئ الإسلام وأحكامه وتشريعاته من جانب ، وعقائد من يُدْعَوْن إلى الدخول فى الإسلام من جانب آخر . ولم يقتصر الأمر على مناقشة من بقى على دينه لإقناعه بأحقية الدخول فى الإسلام ، بل اتسعت دائرة النقاش ، فشملت من اعتنق الإسلام من سكان الدول المفتوحة ، ذلك أن المسلمين الجدد دخلوا فى دين الله بأفكارهم

الفلسفية ، وعاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية ، إذ لم تختف هذه الظواهر عقب الفتح مباشرة — ولو حدث لكان ذلك نقضاً لسنة التطور والتحول الفكرى فى المجتمعات الإنسانية — بل كانت وقوداً للمعارك الفكرية التى اشتعلت فى المجتمع الإسلامى ، وظلت نارها متأججة شرقاً وغرباً عدة قرون ، وما ذاك إلا لأن المسلمين لم يضيقوا ذرعاً بالأفكار الأجنبية ، بل ناقشوها ، وحاوروا أصحابها ، فتطلب منهم ذلك دراسة الحضارات . فلم يرفض العقل الإسلامى معطيات غيره الفكرية ، وفى الوقت نفسه لم يقبلها كلية ، بل ناقشها وحاورها ، ومحصها وعرضها على مقاييسه ، ونظر إليها من خلال منظاره ، فما اتفق مع عقائده قبله بدون تردد ، وما لم يتصادم مع مفهوم كتابه الكريم أفسح له مجالاً فى ساحته الفكرية ، وما لاحظ فيه عنصراً غير مقبول إسلامياً ، فإن استطاع تعديله عدله ، وإن لم يكن فى الإمكان تحويره ليلائم الروح الإسلامية رفضه ، وبهذا استفاد العقل الإسلامى إلى أقصى حد من خبرات الآخرين فى بناء حضارته ، فقبل كل ما أنتجه العقل الإنسانى ، بشرط أن ينسجم بشكل أو بآخر مع نسيج حضارته المنبثق من الإسلام ، والمتناغم فى إيقاعه وحركته مع نغمات الشريعة الإسلامية .

فكل الحضارات العالمية : يونانية ، ورومانية ، وبيزنطية ، وهللينية ، وفارسية ، وهندية ، وتركية ، وصينية ... وتراث الجماعات والشعوب التى عاشت فى المنطقة : آرامية ، ونبطية ، وقبطية ، وفينيقية ....إلخ كانت جميعاً بمثابة حقول مفتوحة ، جال فى أطرافها العقل الإسلامى ، فأخذ ورفض ، وانتقى ومحص ، واختبر وعزل ، واستبعد وفصل ، وعرف وهو يتجول عبر هذه الحقول الشاسعة ، ما الذى ينسجم ونسقه الصاعد ، ويزيده دما وحياة ، وما الذى يحمل جراثيم المرض والهزال ، والدم الأزرق الفاسد ، فكان يعرف جيداً ، كيف يرفض هذا ، ويأخذ ذاك !

لم ينقل المسلمون هذه الحضارات إلى مجتمعهم نقلاً آلياً ، فهم لم يقتبسوها نصوصاً مرسومة محددة ، بل درسوها دراسة واعية ، وفهموها فهماً دقيقاً ، وهضموا مسائلها وقضاياها ، ثم طعموها بما عندهم ، فخرجت ثوباً قشيباً ، يختلف عما كان لدى الآخرين ، فاكتسبت من المعالم الإسلامية ما حوّلها إلى صورة جديدة . وكان لهذا أثره الإيجابى ، ليس

obeikandi.com

على المستوى المحلى فحسب ، بل على المستوى العالمى ؛ إذ عبرت الحضارة الإسلامية بهذا الإنجاز نطاق الحضارات كلها ، وأدت عملاً لم تقم به أى حضارة سابقة ، لا من حيث المحافظة على حضارات السابقين فحسب ، بل من جانب تطويرها وتجديدها أيضاً وإضافة الجديد إليها ، فحمت بذلك التراث الحضارى القديم ، وأسهمت فى إضافة الجديد إلى صرح الحضارة الإنسانية بما زاده ارتفاعاً وعلواً ، ورسوخاً وشموخاً ، وبهاءً وصفاءً .

يقول " لويس يونج " : " وهكذا أصبح المسلمون فى المناطق الجديدة لامبراطوريتهم على صلة تامة بحضارة واسعة ، تضم بين ظهرانيها أدباً واسعاً ، مكتوباً باليونانية والسريانية والبهلوية ، إلى جانب استيعاب للعلوم لم يكن لعرب الجاهلية أن يعرفوها ... لقد صبت جداول كثيرة فى نهر الحضارة الإسلامية ، ولعل أشدها تأثيراً رافد الحضارة الهللينية ، ثم الحضارة الفارسية التى أثرت فى الفكر السياسى والعادات الاجتماعية . والحضارة الهندية التى أسهمت فى علوم الطب والفلك ، وخاصة فى الرياضيات ، حيث أخذ العرب الأرقام الهندية . وقد أخذ العرب بعض التنظيمات الإدارية والسياسية التى كانت قائمة فى البلدان المفتوحة ، مثل : " **ديوان الحسبة** " الذى هو امتداد لمؤسسة بيزنطية ، وفكرة " **المصلحة العامة** " التى هى امتداد لـــ " utilitas publica " فى التشريع الرومانى ، كما أخذوا بعض المناصب السياسية مثل " **الوزير** " من الفرس .

ازدهار الفكر فى المجال الدينى

كان لدعوة الإسلام إلى العلم فى كثير من آيات القرآن الكريم أثر كبير فى توجيه المسلمين إلى السعى فى تحصيل المعرفة بكل الطرق ، ومن أى مصدر ، فقادوا بذلك حركة عقلية فى صدر الإسلام على كل المستويات الثقافية :

ففى الجانب الدينى : بذلوا جهداً كبيراً فى شرح قضايا الإسلام ، متخذين المصادر الأصلية أساساً لبناء هذا الجانب العلمى ، فأدت هذه الحركة إلى إنشاء مدارس عدة لخدمة قضايا الدين ، ومن أهم هذه المدارس :

المدارس الفقهية : حيث كان مجهود العلماء فيها منحصراً فى استنباط الأحكام الدينية من القرآن الكريم والسنة النبوية . تلك الأحكام التى تنظم سلوك المسلم نحو خالقه فى العبادات ، ونحو أخيه المسلم فى المعاملات ، أو معالجة الأحداث التى كانت تظهر باستمرار فى المجتمع الإسلامى ، ولم يكن يعرف لها أحكام سابقة . فكان الجهد فى هذا المجال متجهاً إلى القياس ، أو البحث عن أقرب الأحكام إليها ، أو تقرير حكم لها تحت إطار الروح الإسلامية .

مدارس الحديث وعلومه : حيث بذل المسلمون جهوداً جبارة ، ليس لها نظير فى المجتمعات البشرية ، فرسموا قواعد لقبول الحديث ورفضه ، كما تتبعوا مسانيد الأحاديث لتنقيتها من الدخيل ، والمكذوب ، والمدسوس .

مدارس التفسير : وفيها عنى العلماء بكتاب الله شرحاً ، وتفسيراً ، وتوضيحاً لآياته ، وبياناً وعرضاً لأحكامه ووصاياه ، وتفصيلاً لمجمله ، وتأويلاً لمتشابهه .

مدارس علم الكلام : حيث بذل العلماء الكثير من الجهد للدفاع عن قضايا الدين ، ودحر العقائد المناوئة ، وبيان اضمحلالها وضلالها ، وحماية المجتمع من الأفكار الدخيلة ، التى حاول أصحابها أن ينشروها فى المجتمع .

ولم تقتصر الحركة الفكرية فى صدر الإسلام على هذا الجانب الدينى ، بل خاضت كل المجالات ، وفتحت أبوابها لكل الثقافات التى كانت موجودة فى ذلك العصر ، فنهلت من كل جانب ، وطوعت كل ما أخذته واستقبلته من هذه الثقافات لروحها ، فتكيفت معها ، فاستوعبته وهضمته .

يقول " لويس يونج " :

" ولقد فتح العرب أبوابهم على اتساعها لاستيعاب المعارف والثقافات القديمة من يونانية وغيرها ، مما قاد نهضة كبرى فى مجال الترجمة .... ولعل من أهم دوافع الترجمة : هو حث الإسلام على المعرفة ودعوته للعلم ، وجعل ذلك أمنية عظمى فى الحياة . وقد تعرف المسلمون من خلال الترجمة على جوهر الفلسفة القديمة والطب والعلوم الطبيعية اليونانية ... وهكذا كان مجال الترجمة واسعاً ، حتى إن الكثير من الأعمال اليونانية وصلت إلى أوربا عن

طريق الترجمة العربية فقط ، لأن النسخ اليونانية الأصلية فقدت ...... إن تطور المسلمين للتراث اليونانى هو واحد من أهم حلقات التاريخ الثقافى فى العالم ."

وهكذا قدم المسلمون خدمة كبرى للإنسانية فى جميع مجالات الحياة :

ففى المجال الدينى : قدموا لهم عقيدة إلهية نقية صافية ، لم تدخلها خرافات العقل البشرى ، ولا أوهام وترهات الكهنة ورجال الدين ، الذين ضلوا عن سواء السبيل ، وأضلوا كثيراً من الناس فأوهموهم بضلالات ، شلت عقولهم عن البحث ، وأعجزت تفكيرهم عن الإبداع .

وفى المجال الإنسانى : حطموا الحواجز التى أقامها رجال الدين بين الإنسان وبين مجالات العلوم الإنسانية ، ففتحت أبواب العلوم على مصراعيها لكل باحث ، ورفعت الوصايا الدينية عنه ، فأصبح يتمتع بحرية تامة فى البحث والتنقيب فى آفاق الكون كله ، بما فيه من إنسان وحيوان ونبات وجماد ، وقضوا على الحواجز النفسية بين الشعوب فى المجال العلمى ، وكان شغفهم بتعلم الثقافات الأجنبية وترجمتها إلى اللغة العربية دليل واضح على نظرتهم العالمية لنتاج العقل الإنسانى ، وبيان أكيد على أن الإسلام أباح للمسلم أن يأخذ العلم حيث يجده ، فلا يكون اختلاف البيئة أو العقيدة سبباً فى الإعراض عنه ، مادام لا يجر وراءه ضرراً للإسلام ، أو ضعفاً وهواناً للمسلمين .

اختيار وانتقاء

يخضع النتاج العقلى للإنسان لعدة عوامل ، بعضها يرجع إلى بيئته الثقافية بما فيها من اتجاهات وتيارات ، والبعض الآخر يرجع إلى إمكانات الشخص نفسه ، سواء كانت إمكانات ذاتية ، أو مكتسبة تأثرت بما يحيط بها من ظواهر ، وما يمليه عليه مجتمعه من مبادئ وأخلاق . ومن هنا كان فكر الأمة متفاوتاً فى الجودة وعدمها ، وفى قربه واتصاله بالعقيدة وبعده عنها ، وفيما يحمل بين طياته من مظاهر عالمية ، أو خصائص محلية تتصل اتصالاً وثيقاً بأسلوب حياة المجتمع الذى نشأ فيه المفكر . ولهذا لم يكن اتصال الشعوب بعضها ببعض فى مجال الثقافة والعلوم مطلقاً ، بحيث يأخذ كلٌ من كلٍّ جميع ما ينتجه فى مجال الفكر ، لأن

هناك أشياء محلية ، نبعت من احتياجات المجتمع الخاصة ، وتعالج قضايا محلية ، تتعلق بمبادئ دينية ، أو تقاليد اجتماعية ملتصقة بأسلوب حياتهم الخاص بهم ، فهذه الأفكار لا تصلح لمجتمع آخر ، وخاصة إذا تعارضت مع مبادئ رئيسية عنده .

فالاتصال الثقافى بين الأمم محكوم بقواعد الاختيار والانتقاء ، إذ يجب على من ينقل ثقافة غيره أن يبحث ويمحص ليختار ما ينفعه . ولا يتعارض مع مبادئه وعقيدته ، فإن صادفه شيء من هذا القبيل ، وأمكن تحويره إلى صورة تنسجم مع مبادئه ، فإن كان قادراً على ذلك ، فعليه أن يفعله ، وإلا فليدعه ، حتى لا يكون سبباً فى إذابة مبادئه فى ثقافة أجنبية عنه .

ومن المعروف أنه لا يقدر على عملية الانتقاء والاختيار من الثقافات الأجنبية إلا من كان قوياً فى عقيدته ، عملاقاً فى نظامه الاجتماعى ، راسخاً رسوخ الجبال فى عاداته وتقاليده ، فإن الضعيف فى هذه المجالات ، أو فى إحداها يركع خاشعاً ذليلاً أمام قوة تيار الفكر الأجنبى ، بل يجرى وراءه ، ناسياً ماضيه ، منكراً عقيدته ، ضارباً الصفح عن تقاليده ، فتضيع شخصيته ، وتنمحى هويته .

ولم يكن المسلمون الأوائل فى اتصالهم بالثقافات الأجنبية على هذا النحو ، بل كانوا أعزاء بعقيدتهم ، محافظين على تقاليدهم ، متمسكين بما علمهم الإسلام من مبادئ وأحكام وتشريعات . ومن هنا كان اتصالهم بالثقافات الأجنبية اتصال استعلاء ، لا يأخذون إلا ما ينفعهم ، وليس فيه خطراً على عقيدتهم ، ولا مساساً بأسلوب حياتهم ، ولهذا لم يكن من النادر أن يحدث التصادم بينهم وبين هذه الثقافات ، وأن يقع النزاع الفكرى بينهما ، لكنه سرعان ما ينتهى إلى تحويره وتطويعه للمبادئ الإسلامية ، وتشكيله بالشكل الذى يتناسب مع حياة المجتمع الإسلامى .

يقول " جرونباوم " :

"... وكانت نتيجة هذه الخصومة والتنازع أن خرجت إمكانات الإسلام الفلسفية والعلمية إلى حيز الفعل ، وعبروا عنها من جديد فى صيغ مقبولة لدى ممثلى التقاليد الأقدم عهداً التى كان على الحضارة الدينية الجديدة أن تتعامل معها .... فالتفكير الإدارى

والسياسى من فارس ، والطرائق الهللينية فى التفلسف والعلم الدنيوى ، والطب والرياضيات من الهند ، كل ذلك قد تمثلوه واستوعبوه بغير عناء ، وإن التعريب اللغوى لكل ما اقتبسوه من هذه الأمور ساعد على تمثلها . وحينما توضع وجهة النظر الأجنبية فى داخل إطار إسلامى وبتعابير إسلامية يكون الإحساس بها إسلامياً صادقاً . ومن جهة أخرى فإن التوضيح التدريجى بحقائق الدين الأولى أخذ يساعد على توسيع الأساس الذى يقوم عليه التبادل بين الحضارات ، وهكذا نجد أن ازدهار الحضارة العباسية (٦٧٠ — ٨٤٠) إنما يمثل امتزاجاً ثانياً للحضارة الإسلامية ."

كان المسلمون بإمكاناتهم الفكرية التى كونها الإسلام فيهم قادرين على الانتقاء والاختيار من الحضارات الإنسانية التى اتصلوا بها ، بل كان لهم من الإمكانات ما ساعدهم على التغلب على الجوانب التى لا تتفق مع المبادئ الإسلامية فيها ، فأخضعوها بالتغيير والتحوير لروح الفكر الإسلامى ، وتلك هى العملية الحضارية التى تساعد على التقدم والرقى .

الترجمة

ازدهرت حركة الترجمة من الثقافة الإغريقية والفارسية فى العصر العباسى الأول ازدهاراً لم يحدث فى أى عصر من العصور ، ولا لدى أى شعب من الشعوب على وجه الأرض ؛ فقد نقل المسلمون كل ما وجدوه أمامهم من نتاج عقلى ، فامتلأت المكتبة الإسلامية بكل أنواع الفنون والآداب . وطبقاً للتفاعل الطبيعى فى مثل هذه الظاهرة أن يسيطر الفكر الأجنبى على العقلية المُستَقْبِلَة — وخاصة إذا لم يكن لها ماضٍ ثقافى يحميها من الفكر الأجنبى — ويشكلها فى قوالبه ، ويصوغها طبقاً لاتجاهاته ، ولكن ذلك لم يحدث ، إذ سيطرت العقلية الإسلامية عليه ، وأخضعته لاتجاهاتها ، وشكلته فى معاملها الفكرية ، فخرج منها يحمل ثوباً جديداً يختلف عن أرديته التى ورد بها . وتلك معجزة أخرى فى عالم التأثير المتبادل فى ساحات الفكر البشرى ، إذ كيف يتغلب شعب ليست له أرضية فكرية فى تاريخه على هذا الطوفان الثقافى الذى اندفع من كل اتجاه ، يقتحم عليه مجتمعه ، فيملأ كل ركن

من أركان الأروقة الثقافية فيه ، ويتخلل فى كل منتدى علمى فى المجتمع ! إنها ظاهرة فريدة ، ولغز من الألغاز الذى يصعب على من لم يعرف الإسلام ، ويدرك سيطرته وهيمنته على عواطف وأحاسيس المؤمن به أن يفهمه ، أو أن يصل إلى ما يزيل دهشته أمام هذه الظاهرة النادرة فى تاريخ الفكر الإنسانى .

إن الإسلام بإمكاناته الفكرية ، وقوته الروحية ، وأصالته ، ومتانته ، وثباته فى عقل المسلم ووجدانه ، هو الذى ساعد المسلمين على ترويض العملاق الثقافى الوارد ، وإخضاعه لسلوكيات المجتمع الإسلامى ، وتطويعه لخدمة المسلمين داخل الإطار الإسلامى ، وتحت مظلة العقيدة الإسلامية . فاستخدم المسلمون هذا الفكر بثوبه الجديد لخدمة المجتمع فى جميع المجالات ، وبذلك دبت فيه الحياة بعد أن أشرف على الهلاك فى وطنه ، قبل أن ينقل إلى المسلمين . انتقل بسرعة لم تعهد أيضاً فى مجال الفكر إلى كل أرجاء العالم الإسلامى ، فتناوله المسلمون فى حلقاتهم العلمية ومعاهدهم الدراسية :

دراسة ، وشرحاً ، وتنقيحاً ، وتوفيقاً بينه وبين مبادئ الإسلام وتعليمه ، فأسهموا بذلك إسهاماً بعيد المدى فى بناء صرح الحضارة الإسلامية .

حضارة كان من معالمها البارزة : التجدد المستمر فى عالم الأفكار ، والإحياء الدائم فى المجالات الثقافية المختلفة ، والمساواة بين الشعوب حول مائدة البحث العلمى ، والعمل الدائب ، والحركة المتواصلة فى السعى وراء امتلاك كل ما تصل إليه الأيدى من الثقافة العالمية ، وفتح الباب على مصراعيه لكل ما من شأنه أن يضيف جديداً للهرم الفكرى الذى اشترك فى بنائه كل الشعوب التى انضوت تحت لواء الإسلام على اختلاف أجناسها وأقطارها .

يقول دى لاس أوليرى : " لقد أصبح العرب بحكم كونهم حكاماً لسورية على اتصال بثقافة متطورة إلى حد بعيد ، استخدموها فى عدة مجالات :

فى بناء المجتمع والنظام الاجتماعى بشكل عام ، وفى الفنون والحرف ، وفى الحياة العقلية . وكان الأثر الإغريقى وثيق الصلة بهم ، إلا أن العنصر الفارسى كان أوثق صلة .. وهكذا فقد كانت هذه الفترة (الراشدية والأموية) فترة إحياء دائم إلى حدما ، أخذت

خلالها العناصر المختلفة عن العرب لغة جديدة وديناً جديداً ، وتساوت الآن فى ظل الخلافة ، والتحمت فيما بينها فى حياة مشتركة . ومهما بلغت شدة الخلافات الطائفية والسياسية فيم بعد ، فقد ظلت سيادة الإسلام تنشر لواءها مدة طويلة ، ولا تزال كذلك إلى حد كبير ، وتتمتع بحياة مشترك ، بمعنى أنه يوجد تفهم واعٍ بين مختلف الأنحاء ، وهكذا استطاع التأثير الفكرى أو الدين أن ينتقل بسرعة من أحد الأطراف إلى الطرف الآخر ، كما أن واجب الحج قد أدى الكثير فى تفتح الحياة المشتركة فى نفوس هذه الجماعة ، وترويج الحوار بين مختلف أجزاء العالم الإسلامى ...فالحياة العامة فى الإسلام مبنية إلى حد كبير على استعمال اللغّة العربية كوسيلة فى الحياة العامة ...وكان هذا ذا أثر فى منتهى الفعالية ، قبل إدخال عناصر كبرى من الأتراك والهنود الذين لم يصبحوا قط من الناطقين بالعربية ، فكان هذا السبب هو الذى جعل الجماعة الإسلامية الناطقة بالعربية وسيلة مناسبة للنقل الثقافى ....

ويقول : " ... كان أولى وأكثر دلائل التكيف الجديد فى الفكر الإسلامى هو الإنتاج المتزايد فى ترجمة الكتب التى تعالج المواضيع الفلسفية والعلمية إلى العربية ، وكانت حصيلة ثمانين عاماً من بعد سقوط الأمويين امتلاك العالم الناطق بالعربية نسخاً عربية لأكثر كتب أرسطوطاليس ، وكبار شراح الأفلاطونية الحديثة ، وبعض آثار أفلاطون ، والقسم الأعظم من أعمال جالينوس ، ومؤلفات أخرى فى الطب وشروحها ، وكذلك بعض الكتب اليونانية العلمية الأخرى ، وكتباً هندية وفارسية عديدة ."

فهل آن للمسلمين اليوم أن يعرفوا ما أنجزه آباؤهم الأولون فى مجال الحضارة ، فلا ييأسوا من وضعهم الحالى المتردى فى مجال الفكر وساحة الحضارة ، بل يعقدوا العزم ويصدقوا النية ، ويبذلوا أقصى ما لديهم من طاقات ، كى يعيدوا ذلك المجد الذى ضاع ؟

ويومئذ سينظر العالم إليهم نظرة إكبار وإجلال ، ويحترم عقيدتهم التى دفعتهم إلى الإسهام فى بناء حضارة ، تنشر الأمن والطمأنينة بين سكان الأرض ، وربما حملهم هذا الاحترام إلى اعتناق الإسلام ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم .

obeikandi.com

إزدهار الحركة العلمية وأثرها

غرس الإسلام حب العلم في نفوس المسلمين، حتى غدا المجتمع الإسلامي يعج بآلاف المؤسسات في جميع مدن الإسلام شرقاً و غرباً ، فتسابق الناس في تحصيله وتعليمه والحرص على مواصلة الاشتراك في الحلقات الدراسية . وكانت معظم أحاديث الناس في مجالسهم الخاصة ، ومنتدياتهم العامة تدور حول مسائل العلم وقضاياه ، حتى صار أمل كل شاب أن يصل إلى مركز علمي ، يصبح فيه قبلة الدارسين ، وموئل طلاب العلم ومقصد الباحثين عن الحقيقة ، ولذلك ماجت الأقطار الإسلامية بأفواج الدارسين وطلاب العلم ، فأصبحت بغداد والقاهرة والقيروان وقرطبة وغيرها من المدن الإسلامية مراكز لامعة لدراسة العلم وتلقينه ، فكانت أبوابها مفتوحة على مصراعيها لكل من يريد العلم ، لا فرق في ذلك بين مسلم وغير مسلم ، إذ لم يسمح لهم الإسلام بأن يكتموا العلم عن أحد ، حتى ولو كان مناوئاً له ، ومنكراً لتعاليمه ، فقصدها الأوروبيون في الأندلس غرباً ، وفيما بعد في القسطنطينية وبغداد والقاهرة والقيروان شرقاً . فتعلموا فيها كل أنواع العلوم والمعارف وأخذوا من مدارسها علوم اليونان ، وما أضيف إليه من نتاج العقل الإسلامي في مجالات الطب ، والفلك والفيزياء ، والجبر والهندسة وغيرها مما كان له أثر واضح في النهضة الأوروبية ، إذ لو لم تتصل أوروبا بالشرق الإسلامي في ذلك الوقت ، لما وجدت النهضة الأوروبية المعاصرة ، أو على الأقل لتأخرت قروناً عدة . كذلك لو لم يدعو الإسلام المسلمين إلى العلم ويحثهم على طلبه وتحصيله - بصرف النظر عن هويته وجنسيته – وتعلميه للناس فلا يكتمونه ، لضاع الفكر اليوناني ، لأن أوروبا لم تعرف شيئا عن هذا الفكر إلا من مدارس المسلمين وجامعاتهم ، فالحضارة الأوروبية مدينة بوجودها للمسلمين ، فأساسها علم المسلمين الذي تعلمه الأوروبيون في الجامعات الإسلامية ، وجذورها ممتدة إلى النظريات الأولى التي توصل إليها المسلمون في مجالات البحث المختلفة .

يقول جوستاف لوبون: "... الحق أن القرون الوسطى لم تعرف كتب العلم اليوناني القديم إلا من ترجمتها إلى لغة أتباع محمد ﷺ ، وبفضل هذه الترجمة اطلعنا على محتويات كتب اليونان التي ضاع أصلها ككتاب أبو لونيوس في المخروطات، وشروح جالينوس في

الأمراض السارية ، ورسالة أرسطو في الحجارة... الخ وأنه إذا كانت هناك أمة نقر بأننا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزمن القديم فالعرب هم تلك الأمة ، لا رهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون حتى اسم اليونان . فعلى العالم أن يعترف للعرب بجميل صنعهم في إنقاذ تلك الكنوز الثمينة اعترافاً أبدياً .

قال مسيو ليبري: " لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوروبا في الآداب عدة قرون " . فعرب الأندلس وحدهم إذاً هم الذين صانوا العلوم والآداب التي أهملت في كل مكان حتى في القسطنطينية ، ولم يكن في العالم في ذلك الزمن بلاداً يمكن الدرس فيها غير الأندلس العربية ، وذلك خلا الشرق الإسلامي طبعاً ، وإلى بلاد الأندلس كن يذهب أولئك النصارى القليلون لطلب العلوم في الحقيقة .... ولم يظهر في أوروبا قبل القرن الخامس عشر من الميلاد عالم لم يقتصر على استنساخ كتب العرب . وعلى كتب العرب وحدها عوَّل روجر بيكون ، وليانورد البيزي ، وآرنود الفيلنوفي ، وريمون لول ، وسان توما ، وألبرت الكبير ، والاذفونس العاشر القشتالي.. الخ" .

وجاء في كتاب الحضارة الأوروبية سياسية واجتماعية وثقافية لمؤلفيه أساتذة الفلسفة جيمس وستفال توسون ، وفرانكلين شالزيمام ، وفان نوستراند:

".. في خلال قرنين نقل إلى العربية كل ما خلفه الإغريق من التراث العلمي على التقريب ، وأصبحت بغداد والقاهرة والقيروان وقرطبة مراكز لامعة لدراسة العلم وتلقينه ... وأخذت المعرفة بهذه الثقافة الإغريقية العربية تتسرب إلى أوروبا الغربية في أواخر القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر . وتسابق الرجال من ذوي العقول اليقظى إلى باليرمو وطليطلة لتعلم اللغة العربية ودراسة العلوم العربية مثل : "اديلارد أوف بات" ، "ودانيال أوف مورلي" ، و "روجر أوف هيرفورد" ، و "اسكندر نكرام" ، وكانت رسالة "اديلارد أوف بات" في المسائل الطبيعية أول مؤلف علمي أنتجته أوروبا الغربية في القرون الوسطى ، وقضي بعض الطلاب سنين عدة في أسبانيا ، ثم تضوا أعمارهم كلها في هذا العمل المقصور على ترجمة الكتب العلمية العربية إلى اللاتينية .. وعلى هذا النحو كانت أوروبا قد استولت في مستهل القرن الثالث عشر على محصول العلم الإغريقي والعربي بحذافيره .

لعل في هذا البيان ما يقنع المنكرين لدور الإسلام البناء في مجال الحضارة الإنسانية بالرجوع عن رأيهم ، وما يزيل تردد المتشككين في قدرة المبادئ الإسلامية على تربية الإنسان تربية تؤهله للتفاعل مع الحضارة دون خوف أو تردد يؤثر على مسيرته في ركب الحضارة الإنسانية .

يدعي بعض الباحثين أن المسلمين لم يضيفوا شيئاً إلى ما تعلموه من علوم اليونان ، بل كانوا مجرد مترجمين فقط ، أو آلات نقل حفظوا بعملهم هذا تراث الفكر اليوناني من الضياع ، فهم لم يبتكروا جديداً ، بل انحصر عملهم في حمايته من الضياع ، وبذلوا بعض الجهد في شرحه وتفسره . فلم يخرج علمهم عن الدوران في فلك هذا الفكر شرحاً وتبسيطاً ، وما ذاك إلا أنهم – حسب ما ذهب هؤلاء المنكرين لفعالية العقل الإسلامي – كانوا عاجزين عن الارتقاء فوق مستوى هذا الفكر ، فاكتفوا باتخاذه قبلة لهم ، يدورون في فلكه ، ويلتزمون بمبادئه وقواعده .

ولو كان عند هؤلاء ذرة من إنصاف ، بل لو اطلع هؤلاء على جزء من تاريخ الفكر الإنساني لعرفوا أن دور العقل الإسلامي لم يكن دور الناقل فقط ، بل كان مبدعاً ، جاء بقيم جديدة ، وأرسى نظريات حديثة ، لم يعرفها اليونان ، بل بَيَّنَ ما كان عليه اليونان من أخطاء في مجالات العلم المختلفة ، وابتكر ، واكتشف الكثير من المعطيات والنظم الحضارية التي كانت بمثابة الأسس التي قامت عليها حضارات أخرى في مشارق الأرض ومغاربها ، ففي مجال الجبر – الذي يعرف في اللغات الأوروبية باسمه العربي – توصل بعض علماء المسلمين فيه إلى أشياء تنم عن عبقرية المسلمين في هذه الأبحاث ، إذ توصل محمد بن موسى الخوارزمي (٧٨٠ – ٨٥٠م) من الأعداد الهندية إلى رسم لكتابتها ، كان أساساً للرسم الأوروبي الحالي للأرقام الحسابية . وظل الجدول الفلكي الذي وضعه – وكذلك جدوله في حساب المثلثات والمربعات – المرجع الوحيد لعدة قرون ، كما عرفت أوروبا حياته عن طريق ما ترجمه «Gerhard Voncrimona» في القرن الثاني عشر الميلادي، فدخلت مصطلحات علم الجبر إلى أوروبا عن طريق هذه الترجمة ، وهو ما ينم عن عبقرية في مجال علم الحساب الفلكي .

بل إن الفلكيين المسلمين أثبتوا خطأ نظرية بطليموس في هيئة الأفلاك ، فتوصلوا إلى ما يؤكد أن مواقع الشمس وقطرها يتغيران ، وأن كسوف الشمس وخسوف القمر يقعان في أزمان محددة .

لقد ارتاد علماء المسلمين في مجال العلوم آفاقاً جديدة ، فاكتشفوا الكثير في كل مجالاته وصححوا العديد من نظريات السابقين مما يدل على أنهم لم يكونوا أوعية مصمته لنقل الفكر اليوناني ، ولم يكونوا أبواقاً تردد ما نقلوه من علوم اليونان دون تمحيص وتدقيق وتصحيح ، ولم يكونوا عجزة لا يقدرون على أن يضيفوا جديداً إلى ما أخذوه من علم القدماء ، بل درسوا وغيروا ، وصححوا وأضافوا الجديد حتى صار نتاجهم العقلي والحضاري نسيجاً خاصاً بهم يحمل طابعهم الإسلامي ، ويعكس روحهم الشرقية ، وينبئ عن الجديد والمستحدثات الذي أضافوه .

وليس هذا حديثاً يردده المسلمون دفاعاً عن روادهم ، ولا ادعاءً يدفع إليه . التعصب الديني أو العرقي ، بل ذلك هو الحقيقة الواقعية ، وقد شهد بها كثير من المنصفين الأوروبيين.

يقول لويس يونج : "إن تطوير المسلمين للتراث اليوناني هو واحد من أهم حلقات التاريخ الثقافي فى العالم وليس معنى ذلك أن الحضارة الإسلامية كانت مجرد تقليد أو انعكاس للحضارة اليونانية القديمة . يجب أن لا تغيب عن ذهننا – إذ نناقش ونقيم الحضارة الإسلامية – تلك الأفكار المبدعة التي جاءت من الجزيرة العربية مع الإسلام وقبله ، واستطاع المسلمون أن يمزجوا بها التراث اليوناني فيصنفوا من ذلك لوناً جديداً سباقاً فريداً " .

ويقول سارتون: "...حقق المسلمون، عباقرة الشرق ، أعظم المآثر في القرون الوسطى ، فكتبت أعظم المؤلفات قيمة ، وأكثرها أصالة ، وأغزرها مادة باللغة العربية ، وكانت من منتصف القرن الثامن حتى نهاية القرن الحادي عشر لغة العلم الارتقائية للجنس البشري ، حتى لقد كان ينبغي لأيٍّ كان ، إذا أراد أن يلم بثقافة عصره وبأحدث صورها أن يتعلم اللغة العربية . ولقد فعل ذلك كثيرون من غير المتكلمين بها ".

ويقول سيديو: "تكونت فيما بين القرن التاسع والقرن الخامس عشر مجموعة من أكبر المعارف الثقافية في التاريخ ، وظهرت منتوجات ومصنوعات متعددة ، واختراعات ثمينة تشهد بالنشاط الذهني المدهش في هذا العصر ، وجميع ذلك تأثرت به أوروبا بحيث يؤكد القول : إن العرب كانوا أساتذها في جميع فروع المعرفة . لقد حاولنا أن نقلل من شأن العرب ولكن الحقيقة ناصعة ، يشع نورها من جميع الأرجاء ، وليس من مفر أمامنا إلا أن نرد لهم ما يستحقون من عدل إن عاجلاً أو آجلاً ".

ويقول دريبر: ".. ينبغي عليّ أن أنعى على الطريقة الرتيبة التي تحايل بها الأدب الأوروبي ليخفي عن الأنظار مآثر المسلمين العلمية علينا ؛ أما هذه المآثر فإنها على اليقين سوف لا تظل كثيراً بعد الآن مخفية عن الأنظار ، إن الجوار المبني على الحقد الديني والغرور الوطني لا يمكن أن يستمر إلى الأبد" .

ويقول نيكسون: ".. إن أعمال العرب العلمية اتصفت بالدقة وسعة الأفق ، وقد استمد منها العلم الحديث – بكل ما تحمل هذه العبارة من معانٍ – مقوماته بصورة أكثر فاعلية مما نفترض" .

أسهم المسلمون إسهاماً كبيراً في بناء صرح الحضارة العالمية في جميع مجالاتها فقاموا بإنجازات ضخمة في مجال العلوم ، على اختلاف أنواعها وتخصصاتها ، قدموا للإنسانية نتاجاً عقلياً ظل يضيء لها الطريق منذ ذلك الزمن ، إذ لم تكن معالم الحركة الفكرية في المجتمع الإسلامي ومضات وقتية ، بدافع حماس فجائي ، سرعان ما يخبو ويختفي ، بل كانت معالم حقبة عظيمة ، امتد تأثيرها الفكري قروناً عدة ، واستمر نموها وتطورها دون انقطاع حتى بعد التدهور السياسي للدولة الإسلامية ، وعمت آثارها جميع أنحاء العالم .

وكانت نتائج أبحاث المسلمين أساساً بني عليه العلماء ، ومنطلقاً للنهضة العلمية المعاصرة ، فقد اعتمدت كل نظريات علم النجوم في القرون الوسطى على أبحاث الكندي في مجال الفضاء ، إذ بعد ما ضعف مستوى الأبحاث في هذا المجال بعد تحول الدولة الرومانية إلى المسيحية ، انتقلت هذه المعارف إلى العرب عن طريق بيزنطة ، وفي نفس الوقت تخلت

أثينا عن موقعها كمركز للأفلاطونية الحديثة ، فانتقلت المراكز العلمية للرياضيات والطب والكيمياء والفلسفة إلى فارس ، ثم انتشرت في جميع أرجاء العالم الإسلامي .

وعبر سوريا انتقلت إنجازات عصر قياصرة الرومان الإغريقي في مجال علم النجوم إلى العرب ، فأصبحت بعد ترجمتها علوماً عربية ، تناولها العلماء بالبحث والتمحيص ، فزادوا عليها وصححوا ما أثبتت الأبحاث أنه خطأ ، فقد كتب الكندي عن إشعاعات النجوم التي لها تأثير قوي على الكائنات الحية . ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن بغداد كانت مركزاً للأبحاث الفضائية في ذلك العصر ، وأن جهود العرب في هذا المجال دفعت علماء أوروبا إلى الاهتمام بهذا النوع من الأبحاث .

كما اهتم المسلمون اهتماماً كبيراً بعلم الفلك ، لأن الدين كان أحد الدوافع الأساسية للبحث فيه ، كي يتمكنوا من معرفة مواعيد الصلاة بسهولة ، وتحديد القبلة في أي مكان يوجد فيه المسلم ، وقد برز فيه عدد كبير من العلماء منهم: الفزاري (توفي ٧٧٧م) فهو الذي أنشأ الاصطرلاب، والبتاني (توفي ٩٢٩م) الذي قام ببعض الأرصاد الفلكية وبعض المقاييس .

وتبعه عمر الخيام (توفي ١١٢٣م) فصمم تقويماً جديداً ، ولم يخطئ فيه إلا بمقدار يوم واحد في كل خمسة آلاف سنة ، كما بحث أبو معشر (توفي ٨٨٦م) بشكل دقيق في العلاقة بين المد والجزر وحركة القمر .

إلا أن أهم إنجازات المسلمين في علم الفلك تتمثل في تصميمهم المرصد ، إذ لم يظهر بشكله الدقيق والمنظم إلا في العصر العباسي ، واهتم العلماء الأوروبيون الذين تلقوا تعليمهم في معاهد عربية بهذه الإنجازات ونقلوها إلى لغاتها ، فقد ترجمت "مبادئ الهندسة " لـ "إقليدس" و "المجسطي" لـ "بطليموس" ، ومن بين ما ترجم مؤلفات البطاني، وأرشميدس والفارابي والخازن ، ويرجع الفضل في دقة حساب دورات كواكب الفضاء : (الشمس والقمر والكواكب السيارة الأخرى) لأبحاث البطاني .

وأمدت المدارس العليا التي أنشئت في قرطبة و "سيفيلا" و "توليدو" بأسبانيا الحياة الثقافية الأوروبية بروافد حملت معها عناصر الخصوبة ، إذ نقل منها الأوروبيون كثيراً من

obeikandi.com

المعرفة ، فكانوا همزة الوصل بين الثقافة الإسلامية ونقطة انطلاق النهضة الأوروبية الحديثة ، نذكر منهم : "جريرت فون أو ريلاك" (تقلد منصب البابوية فيما بعد تحت اسم "سلفستر" الثاني ، ومات عام ١٠٠٣م) ، فقد اهتم بما كان يدور في "توليدو" من أبحاث ومناقشات ، وعلى الأخص : الرياضيات وعلم النجوم ، فبرع فيها ، لدرجة أن الشعب اعتقد أن بينه وبين الجن صلة . و "دانيال مولي" الذي درس فى "تونيدو" علم النجوم العربي ودوّن معارفه التي اكتسبها من هذه الدراسة في كتاب .

كذلك أولت الدولة الإسلامية اهتماماً كبيراً بعلوم الحساب لحاجاتها إلى هذا النوع من العلوم في تطبيق بعض الفروض الإسلامية كالزكاة ، والجزية ، والخراج ، وتقسيم الميراث طبقاً لما نص عليه في القرآن الكريم ، فبرع في هذا المجال علماء لازالت أسماؤهم تذكر لطلاب هذا العلم كـ : محمد بن موسى الخوارزمي والبتاني والبيروني وغيرهم مما يدل على أن المجتمع الإسلامي كان الدوحة التي ترعرع فيها بجميع فروعه ، فعبق بريحانه أجواء جميع الأمم التي اتصلت به في ذلك الزمان ، واقتطفت من بساتينه ما شاءت فكان ذلك بذرة النهضة العلمية الحديثة .

ويستطيع مؤرخو الفكر الإنساني أن يملئوا مجلدات عدة ، إذا أرادوا تسجيل ما أنتجه المسلمون في مختلف العلوم والمعارف ، بل إن المرء لن يجد نهاية في الحديث عن هذا الجانب لدى المسلمين ، لأنهم أثروا المكتبات بما لا حصر له من البحوث والنظريات والاكتشافات في جميع مجالات المعرفة . ومن هنا فلا نستطيع أن نلم بجميع جوانب النتاج الفكري للمسلمين ، شأننا في ذلك شأن كل من تناول هذا الموضوع بالبحث والتسجيل ، فلم يخرج كل واحد من هؤلاء عن تناول جزئية من آلاف — بل ملايين — الأجزاء المنتشرة على أصعدة الفكر الإنساني ، ولذلك سوف نكتفي بما تناولنا من بيانات توضح فاعلية العقيدة في دفع المسلمين إلى الإسهام في مجال الحضارة الإنسانية ، لكننا لن ندع الموضوع جانباً قبل أن نختمه بالحديث عن جهود المسلمين في مجال الطب ، ذلك أنه من المجالات التي يقوم على أساسها حماية الإنسان حتى يتمكن من مواصلة العطاء لمجتمعه .

اقتبس الأطباء المسلمون عدداً من النظريات الطبية من الإغريق، وكان ما أخذوه منهم يشكل قاعدة أساسية انطلق منها المسلمون في مجالات الطب الواسعة والمتشعبة فصححوا ما اكتشفوا خطأه عند الإغريق ، وأضافوا إليه الكثير من اكتشافاتهم المبتكرة ، غير أنهم ركزوا على الأمور العملية بدلاً من النظرية في العلاج الطبي ، فأحرزوا تقدماً كبيراً في فن الاستطباب، وفي مجال صنع الأدوية ، فأنشئت أول مستشفى في بغداد في عهد الخليفة هارون الرشيد ، ثم ما لبث أن افتتحت مستشفيات مماثلة لها في جميع أنحاء العالم الإسلامي ، وكان أشهرها : "بيمارستان" دمشق ، فقد توجه إليه الأطباء للحصول على الدرجات العلمية التخصصية ، وأمّه الطلبة للتدريب على ما يحتاجون إليه في امتحاناتهم ، كما كان فيه قسم خاص للإسعافات العاجلة .

وامتدت العناية الطبية إلى جميع أنحاء الدولة ، إذ كان الأطباء يزورون السجون من آن لآخر لعلاج المسجونين ، كما قاموا بزيارات مماثلة للقرى النائية ، واهتم الأطباء أيضاً بعلاج الأمراض النفسية ، فلم يتجنب المسلمون المرضى ، وينظرون إليهم نظرة احتقار كما كان يفعل الأوروبيون معهم آنذاك ، واستمرت هذه المعاملة قروناً ، فقد ظل المريض نفسياً محتقراً في أوروبا على امتداد هذه القرون ، وكان الأوروبيون يفرون منه كما يفرون من مرضى الجذام ، ويتجنبونهم كما يتجنبون المجرمين .

وكانت رعاية المرضى سبباً في اكتشافات جديدة في مجال الأدوية ، ذلك المجال الذي أصبح علم المسلمين الذي لا ينازعهم أحد فيه ، إذ اكتشفوا العديد من المستحضرات الطبية ، واستعملوا كثيراً من الأعشاب في علاج المرضى ، وأثروا هذا المجال باختراعاتهم الجديدة . وظهر العديد من المراجع الطبية في هذه الحقبة الزاهرة في تاريخ الطب الإسلامي ، ثم انتقلت إلى أوروبا عبر أسبانيا فكانت أسس علم الطب في مدارسها العليا لعدة قرون . ومن بين من كتبوا هذه المراجع :

الرازي ، فقد اشتهر في أوروبا بأبحاثه الطبية ، وخاصة فيها ما تناول مرض الجدري والحصبة ، إذ أنه أول من فرق بينهما وذلك في كتابه : "في الحصبة والجدري" وترجمت مؤلفاته إلى اللاتينية وطبعت طبعات عدة على امتداد عدة قرون ، وكان آخرها طبعة نشرت

في إنجلترا في القرن التاسع عشر الميلادي ، وحرصت جميع المكتبات الأوروبية على اقتناء نسخ من مؤلفات الرازي .

كذلك أطلق الأوروبيون على ابن سينا لقب "أمير الأطباء" فقد أثرى المكتبة الطبية بأبحاث طبقت شهرتها الآفاق . فلا يجهل من له صلة بعلوم الطب كتابه : "القانون" الذي بلغ شهرة لا مثيل لها بعد ترجمته إلى اللاتينية ، بما يضمه من أبحاث عن :

علم الصحة ، والفسيولوجيا ، وطرق العلاج ، والأدوية ، وأمراض العيون وغير ذلك من المجالات التي لم يسبقه أحد في بحثها .

وكان ابن الهيثم من أشهر أخصائي أمراض العيون ، فقد كتب عن البصريات وانكسار الضوء ، والرؤية بالعدسات ، وأهمية الحجرة المظلمة في عيادة طبيب العيون للتشخيص والعلاج ، وقد انتفع "روجربيكون" و "كليبر" بهذه الأبحاث .

وكان أبو القاسم أشهر جراح في ذلك العصر ، فقد باشر في عالم الجراحة أعمالاً لم يجرؤ أحد من قبله على القيام بها ، كما استعمل أيضاً في الخياطة الداخلية لأول مرة نوعاً لا يحتاج إلى نزعه ، بل يتآكل كيميائياً داخل الجسم .

وإلى أطباء المسلمين يعود اختراع الأدوات الجراحية ، ونظام فحص المريض بشكل كامل ، ووصف العديد من الحالات الطبية والأمراض ، كما كانوا يملكون موهبة نظرية وعملية في تصنيف علوم الطب وتقديم نتائجهم في كتاب عملي واضح للطلاب وللأطباء معاً ، غير أن أكبر إنجاز طبي للمسلمين يتجلى في إنشاء المستشفيات وإدارتهم إياها على أكمل وجه ، وفق نظام دقيق لا يزال يعمل به حتى الآن .

وهذا يبين بوضوح أثر الإسلام في دفع المسلمين إلى التعامل مع المعطيات الحضارية والإسهام فيها بما يدحض ما يشيعه أعداء الإسلام من أنه كان السبب في تخلف المسلمين عن ركب الحضارة الحديثة ، إذ بجانب ما أضافوه في الجانب العلمي — كما بينا جانباً منه — أسهموا إسهاماً كبيراً في حقول العلوم الإنسانية :

كالتاريخ والاقتصاد والقانون والسياسة والتربية ، وعلم النفس ومناهج البحث ، والاجتماع ، والنظم الإدارية ، والآداب ، والفنون وغيرها بما يؤكد بوضوح تأثيراتهم في مجرى الحضارة البشرية ، وخاصة في الحضارة الغربية .

obeikandl.com

obeikandl.com